

عبد الله نديم

(١٢٦١ - ١٣١٣ هـ = ١٨٤٥ - ١٨٩٦ م)

إن كان يستحق الإعجاب مَنْ يَنْبَغُ - والظروف له مواتية - من أسرة عريقة في المجد أو الغنى أو الجاه ونحو ذلك مما يبسّر للأبناء أن يتعلموا ، ثم يشقوا لهم طريق الحياة وطريق المجد ، فأولى بالإعجاب من يَنْبَغُ والظروف له معا كسة ، لا حَسَبَ ولا نسب ، ولا غِنَى ولا جاه ؛ بل ولا القوت الضروري الذي يمكن الفتى من أن يجد له وقت فراغ يتقف فيه نفسه .

قد يدهو إلى شيء من الإعجاب منظر شجرة يانعة ضخمة مشمرة ، تعهدّها بستانيها بكل ما يصلحها ، من وضع في المكان المناسب ، والغذاء الكافي ، والرّمي المتوافر في أوقاته ؛ ولكن أدعى إلى الإعجاب بِذرة طُرِحَتْ حيثما اتفق ، فذرت جذورها بنفسها تَجِدُّ في حصولها على غذائها ؛ فقد تجده وقد لا تجده ؛ وتما كسها الطبيعة فتكافحها وتتغلب عليها ، ثم هي آخر الأمر تكون أَيْنَعُ ما كانت شجرة وأضخمها وأوفرها إثماراً . كذلك كان من النوع الثاني « عبد الله نديم » ، كل الدلائل تدل على أنه سيكون نجاراً أو خبازاً ، ولو تنبأ له متنبئ متفائل لقال إنه سيكون نجاراً ماهراً ناجحاً ؛ فأما أديب يملأ الدنيا ويقود الرأي العامَّ ويَحْسَبُ حسابَه في كل ما يخطه قلبه أو تنطق به شفتاه ، فلا يدور بخلد أحد حتى فاتح الرمل والضارب بالحصى .

هذا أبوه أصله من الشرقية ورحل منها إلى الإسكندرية وعمل فيها نجاراً للسفن بدار الصناعة (الترسانة) ، ثم لم يسجبه هذا العمل ، فأتخذ نجاراً صغيراً



عبد الله نديم

يصنع فيه الخبز ويبيعه ، ويحصل من ذلك على الكفاف^(١) من العيش .
فما بالك بأسرة من هذا القبيل ، مسكن متواضع ، وخبز إن توافر فأدام^(٢)
غير متوافر ، وملبس لا يراعى فيه إلا أن يستر الجسم ولا يلفت النظر ، وصحة تُترك
البتّ فيها للقضاء والقدر .

ولكن « عم مصباح » والد عبد الله رجل جادّ في عمله ، قنوع بكسبه ،
مستقيم — بالضرورة — في حياته ، من بيته إلى مخبزه إلى مسجده . أرسل ابنه
إلى الكتاب على باب حارته كما يفعل الناس من مثل طبقتة ، يرسلون أولادهم
إلى الكتاب زمنًا ما ، فإذا اشتدّ متّهم^(٣) وقوى جسمهم أخذوهم إلى دكا كينهم
في مثل صناعتهم التي تُتوارث كما يُتوارث المال .

ولكن عبد الله تفوّق في الكتاب ، وظهرت عليه ملامح الذكاء ، فأراد أن
يستمر في تعلمه ولم يمانعه أبوه . وكانت الطريقة المعبّدة^(٤) لذلك أن يرسل الوالد
ابنه إلى الأزهر ، ولكن أين مال الأسرة الذي يحتمل ذلك ؟ !

على أنه في الإسكندرية — قريباً من بيتهم — مسجد هو صورة مصفّرة
من الأزهر ، يدرّس فيه المشايخ ما يدرس في الأزهر وعلى نمطه ، وذلك هو مسجد
الشيخ إبراهيم باشا .

فدرس فيه عبد الله نديم ما شاء الله أن يدرس ، ولكنه كان تلميذاً خائباً
في هذه الدراسة لا يصبر على جفافها ، ولا يقدر على حل ألغازها ، ولا يتحمل العناء
في تفهم كتب نحوها وفقها ، فكان لا يواظب على درسه ولا يبدي به اهتماماً .
وُحِبَّ إليه نوع من الدراسة غير منظم ، يوافق مزاجه ، ويناسب استعداده ،

(١) الكفاف : مقدار الحاجة .

(٢) الإدام : ما يصنع به الخبز من ضرور المآكل .

(٣) التّن : الظهر . (٤) المعبّدة : الميسرة المنذلة .

وهو أن يصاحب الناشئين في الأدب وَيَفْشَى مجالسهم ومجالس أساتذتهم . وما كان للأدب درس منظم ولا هو يُعَدَّ علماً ولا فناً ، وإنما هو « هواية » كذى الصوت الجميل يَهْوَى الغناء ويقلد فيه من سبقه ، ولا درس ولا فن ؛ ومثل هذا يُنظر إليه من أهل العلم بالنحو والفقه نظرة استخفاف وازدراء ؛ وقد عهدنا هذا في أيام دراستنا بالأزهر ، أيام كان الشيخ سيد المرصفي يُحَلِّقُ حلقة لدراسة الأدب ، فكان هذا عَجَباً من العجب ، ينظر طلاب الفقه والنحو ومشايخهم إلى حلقة شزرأ^(١) .

كان عبد الله نديم يفشى هذه المجالس الأدبية التي ليس لها منهج ؛ فيسمع شعر الشعراء وزجل الزجالين ، ونوادير التماجنين ، وقصائد الراويين ، فيصغى إلى كل ذلك في فهم كأنه كله آذان ؛ ويدرك من غير وعى أن هذا بابُه وهذا فنه ، وأنه إنما خلق لذلك لا للنحو ولا للصرف . فاشتاق نفسه أن يسلك هذا المسلك ويسير في هذا الطريق ؛ وقد مُنح حافظه لاقطة ، وقدرة على التقليد فائقة ، فأخذ يحاكي بعد ما اختزن ، ويعنى بعد ما سمع ، فطوراً يوفق فيستدعي ذلك إعجاب أمثاله ، وطوراً يُخْذَل فيستخرج ضحك أقرانه ، ومن كل ذلك كان يتعلم .

وإلى جانب هذا تعلم درساً في منتهى القيمة ، درساً تعلمه « حافظ » ولم يتعلمه « شوقي » ، وتعلمه « بيرم التونسي » ولم يتعلمه « توفيق الحكيم » ؛ درساً قل أن يفقهه الأدباء مع عظيم خطره وكبير أثره ، ذلك هو أن نشأته في صميم الأحياء الشعبية مع رهافة حسه ، ويقظة نفسه ، وقره وبؤسه ، علمته أن يحيط إحاطة واسعة بلفظ الشعب وأدبه ، من أمثال وحكايات ووجوه معاملات وصنوف تصرفات ، فرسم ذلك كله في نفسه لوحات كان لها أكبر الأثر في حياته الأدبية المستقلة ؛ والنفس الحساسة الفنانة تحتزن حتى حفيف أوراق الأشجار ، وههههه

(١) نظر إليه شزرا : أى بجانب عينه ، لإعراضاً أو غضياً .

الأغصان ، وديبب التَّمال ، وحلاوة البسات ، وأدق مجالى الجمال والقبح ، ثم تعرف كيف تستخدم ذلك فى فنها متى آن أوانه .

ولكن : مَرَحَى ^(١) بذلك كله ، تَبّاً للحياة المادية . هل يكسب من ذلك « عبد الله نديم » قرشاً ، وهل يستطيع « عم مصباح » أن يحمّل هذا الهذَر طويلاً ؟ لقد احتمل الإنفاق عليه فى الكتاب ، لأنه طفل والكتاب خير من البيت واحتمله يدرس فى « جامع الشيخ » لأنه كان يرجو فى ابنه أن يكون شيخاً معتمداً وعالمًا مفخماً ، يُتَقَرَّب إلى الله بتقبيل يده والتمسُّح بثوبه . فأما هذا اللغو الفارغ الذى يسمى شعراً ونثراً فهو عبادة الشيطان لا عبادة الله ، ولست أتقرب إلى الله بالإنفاق على عبدة الشياطين .

لقد نفَضَ أبوه يده منه ، فأخذ عبد الله نديم يبحث عن وجه للكسب ، فاتجه اتجاهاً غريباً ، هو أن يتعلم فن الإشارات التلغرافية ثم يتكسب منه ، وكذلك كان ، فعلمه واستخدم بمكتب التلغراف بينها .

ثم نقل إلى مكتب القصر العالى حيث تسكن والدة الخديو إسماعيل ، وقد كان قصرًا من أخصم القصور ، يقع على النيل فيما يسمى الآن « جاردن سیتی » خَدَمَ وَحَشَمَ وموسيقى وطرب ، وما شئت من ألوان النعيم والترف ؛ وقد تعلم منه عبد الله نديم كيف يعيش الأمراء والسادة ، كما تعلم فى بيته وشارته فى الإسكندرية كيف يعيش الفقراء والعبيد .

وعاد إليه فى القاهرة شوقه إلى الأدب ومجالس الأدباء ، وكان حظ القاهرة فى ذلك أوفى ؛ ففيها — مثلاً — مجلس محمود سامى البارودى ، وكان مجلساً عامراً يُسَمَّرُ فيه السمر اللذيد : فأدب قديم يُعرض ، وأدب حديث يُنشد ، وعرض للمعنى الواحد صيغَ صياغاتٍ مختلفة ، ونقد قيم لهذا ولذاك ، يتخلله نوادر فكاهية ،

(١) مَرَحَى : كلمة إعجاب بمن أصاب المرئى .

وأحاديث في الأدب حلوة . اتصل عبد الله نديم بهذا المجلس وأمثاله ، وتوثقت الصلة بينه وبين كثير من أدباء مصر إذ ذاك ، وأخصهم سبعة ، أولع بهم واستفاد من معارفهم وأدبهم : شاعر مصر محمود سامي البارودي ؛ وشيخ الأدباء عبد الله باشا فكرى ؛ والسيد على أبو النصر البليغ الشهير ؛ ومحمود صفوت الساعاتى ، الواسع الاطلاع ، الكثير المحفوظ ، المتفنن في الطرائف الأدبية ؛ والشيخ أحمد الزرقانى الكاتب الأديب ؛ ومحمد بك سعيد بن جعفر باشا مظهر الشاعر الناثر ؛ وعبد العزيز بك حافظ عاشق الأدب والأدباء الكريم الوفى .

وكان الذى أرشده إلى هؤلاء الأدباء وعرفه بهم ، وأحكم الصلة بينه وبينهم ، الشيخ أحمد وهبى أحد المؤتمنين بالشعر ، الناظمين له ، والمحرر بالوقائع المصرية فى بعض أيامه .

فأتى على هؤلاء وأمثالهم دراسته ، وشرب من منهلهم ، وارتوى من ينابيعهم فهو فى النهار تلغرافى ، يتقبل الإشارات ويرسلها ، وبالليل أديب يتقبل نماذج الأدب ويحاكيها .

ولكن لم يمهله الحظ ، فقد غلط فى عمله فى القصر العالى غلطة سببت غضب خليل أغا عليه ؛ ومن خليل أغا ؟ هو كبير أغوات الوالدة (أم إسماعيل) ، وكان القصر مملوءاً بالأغوات ، يقومون بشؤون القصر ، ويستقبلون المدعوّات ويصحبونهن إلى باب الحريم ؛ ونال كبيرهم خليل أغا من النفوذ ما لم ينله ناظر النظار ولا الأمراء والوجهاء ، لحظوته عند الخديو إسماعيل ووالدته ، إشارته حُكم ، وطاعته غم ، يخضع له أكبر كبير ، ويسعى لخدمته أعظم عظيم ، رأيه نافذ فى الدواوين والمصالح ، يتحكم فى مصر والسودان ، ويأتمر بأمره كبار الموظفين والأعيان ، حاز الثروة الضخمة والجاه العريض ، كأنه كافور الإخشيدي فى أيامه ، حتى إنه لما عقد عقد زواج الأنجال فى القصر العالى حضره النظار والعلماء

وكبار الأعيان ، فكان يرأس الجميع « خليل آغا » . كان من خصاله أنه يذبح ويسبح ، ويعصبُ ويبنى مدرسة .

فما عبد الله نديم إذا غضب عليه خليل آغا العظيم !؟ إذا غضب عليه غير خليل آغا فصل من وظيفته ، ولكنه إذا غضب عليه خليل آغا ضرب وطرده ، وضاعت عليه الأرض بما رحبت .

سُدَّتْ في وجهه أبواب الرزق في القاهرة كما سُدَّتْ في الإسكندرية ، وانتهى به الأمر إلى أن ينزل على عمدة من عمد الدقهلية يقيم عنده ويعلم أولاده ؛ ثم ما لبث أن تخاصم مع العمدة . فأما العمدة فيرى أنه آكله وأمكنه مقابل تعليم أولاده ، وأما عبد الله نديم فيرى أن هذا حق الضيف ويبقى له أجرُ التعليم . واختلفت وجهة النظر ، وتشاداً ثم تساباً ، وغلى مرَّجَل عبد الله نديم . فكان ذلك نعمةً على أديه إذ انفجر المرَّجَل ، وتدقق عبد الله نديم بصوغ في هجاء العمدة أدباً لاذعاً ، تدفمه عاطفة حادة ، فعرف نفسه أديباً ، وعرفه من حوله لسنّاً يملك ناصية القول .

واتصل أمره بعين من أعيان المنصورة ذى مروءة ، فاستدعاه وأكرمه ، وفتح له دكاناً يبيع فيه المناديل وما إليها ، فاتخذ دكانه متجراً للمناديل ومجماً للأدب ، يجتمع فيه بعض أصحابه يتذاكرون الأدب ، ويتناشدون الأشعار ، ويتبادلون النوادر ، وبين هذا وذاك تأتي شارية لمنديل ، أو شارٍ لعصابة .

وكانت هذه العادة فاشيةً في المدن ، فقد يكون التاجر ذا ثقافة فقهية أو أدبية فيتخذ أصحابه من دكانه مكاناً للبحث في الفقه أو الحديث في الأدب ، إذ لم تكن قد غزتنا المدنية الأوربية فعلتنا التخصص ، وأن مكان التجارة للتجارة فقط ، وأما الحديث في العلم والأدب فله مكان آخر . وقد أدركنا في أول زماننا شيئاً من هذا ، فكانت بعضُ الدكاكين مدارس ، وخاصةً في الأدب ، لأن الأدب لم

يكن يُدِرَّ رزقاً ، وإنما هو فنٌ للمتعة . وكثير من أدباء عصر عبد الله نديم كان من هذا الطراز ، فحسن أفندي عبد الباسط — الأديب الشاعر الهجاء — كان في بعض أيامه يفتح دُكان عِطارة في الزقازيق ، ويجمع به في دكانه أدباء الزقازيق وظرافاؤها ؛ والشيخ أحمد وهي الشاعر الأديب كان له دُكان طرايش بالنعورية ، وكانت مجتمع الأدباء والشعراء . ولكن أكثر هؤلاء لم ينجحوا في تجارتهم ، فالأديب فنان ، والفنان — في الغالب — سَمِخٌ يَقْدِرُ الذوق الفني أكثر مما يقدر الدرهم والدينار ، والتجارة تحتاج إلى الضبط والدقة ، والعناية بالإيراد والصرف ؛ والفنان — عادة — طليق لا تطيق نفسه القيود والحدود . على كل حال وجد عبد الله نديم بعد برهةٍ دكانه وليس فيها مناديلٌ ولا جوارب ، ولكن جماعةً يتناشدون الأشعار ، ويستهلكون ولا يُغْلون ، فأغلق دكانه وطوف بالبلاد ينزل ضيفاً على هواة الأدب ؛ إلى أن نزل بطنطا ، وصادف مولد السيد ، فكانت له حادثةٌ ظريفة لفتت إليه الأنظار وشهرته بين الناس .

وكانت البيوت أعظم شأنًا من الدكاكين في أنها مجتمع الأصدقاء من ذوى العلم والفن ، يسمرون فيها السمر اللذيذ ويتحدثون الحديث الظريف ؛ هذا بيته مُنتدى الأدباء ، وهذا بيته مجمعُ الفقهاء ، وهكذا ، فيكاد كل رجل يعرف مكانه من هذه البيوت على حسب ذوقه وميله ، ويكثر ذلك في طبقة الأوساط والأغنياء من ذوى الميل العلمى والفنى ؛ وأدركتُ في حارتنا المتواضعة ثلاثة بيوت من هذا القبيل ، كان صاحبُ أحدها قاضياً شرعياً كبيراً ، فكان بيته منتدى الفقهاء والعلماء يتسامرون عنده في الدين والفقه ؛ والثانى موظفاً ظريفاً يسمُر عنده أصحابه بالأخبار والفكاهات ، ليلةً يدعون قارئاً جميل الصوت ، وأحياناً فكهاً حسن الحديث ؛ والثالث دُفاناً يضرب على الدُف في الأفراح ، فكان عنده كثير من هواة الآلات الموسيقية ، يميون عنده الليلى الملاح حتى الصباح . فما بالك

بالمومنين إذا شُغِفُوا بِأَدَبٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ فَنٍّ ، وَكَانُوا كِرَامًا يَفْتَحُونَ بِيوتِهِمَّ لِلهُوَاةِ مِنْ أَمْثَلِهِمْ ، يَجِدُونَ فِيهَا الطَّعَامَ الشَّهِيَّ وَالْفَنَّ الشَّهِيَّ ؟ !
كَانَ بَيْتُ شَاهِينَ بِأَشَا كَنْجِ بَطْنِطَا — وَهُوَ مَفْتَشُ الْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ إِذْ ذَاكَ —
مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ؛ كَرَمِ حَاتِمِي ، وَذَوْقِ أَدِيبِي ، وَظَرْفِ نُوَاسِي ، فَتَعْرِفُ بِهِ عَبْدِ اللَّهِ
نَدِيمٍ ، فَوَجَدَ فِيهِ شَاهِينَ بِأَشَا قُبْحَ مَنْظَرٍ ، مَعَ طَلَاقَةِ لِسَانٍ ، وَخَفَةَ رُوحٍ ، وَسُرْعَةَ
بَدِيهَةٍ ، فَغَطَّى ذَلِكَ عَلَى قُبْحِ مَنْظَرِهِ ، وَاتَّخَذَهُ لَهُ نَدِيمًا .

كَانَ مَرَّةً يَجْلِسُ فِي قَهْوَةِ أَيَّامِ الْمَوْلِدِ الْأَحْمَدِيِّ سَنَةَ ١٢٩٤ هـ وَمَعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ
أَصْحَابِهِ ، مِنْهُمْ السَّيِّدُ عَلِيُّ أَبُو النُّصْرِ الشَّاعِرُ ، وَالشَّيْخُ أَحْمَدُ أَبُو الْفَرَجِ الدَّمِنْهَوْرِيُّ
الْأَدِيبُ الْمَاجِنُ ، فَطَلَعَ عَلَيْهِمَ اثْنَانِ مِنْ « الْأَدْبَاتِيَّةِ » .
وَالْأَدْبَاتِيَّةُ طَائِفَةٌ مِنَ الشَّحَازِينَ يَسْتَجِدُّونَ بِأَدْبِهِمُ الْعَامِيَّ وَطَلَاقَةَ لِسَانِهِمْ
فِي الشَّعْرِ ، وَحَضُورَ بَدِيهِتِهِمْ ؛ عُرِفُوا بِالْإِلْحَاحِ فِي الطَّلَبِ ، فَإِذَا رَدَّتْهُمْ أَيْ رَدَّ
أَخَذُوا كَلَّتَكَ عَلَى الْبَدِيهَةِ ، وَصَاغُوا مِنْهَا شِعْرًا يَدُلُّ عَلَى اسْتِمْرَارِهِمْ فِي طَلَبِهِمْ ،
وَاسْتِغْوَاءِ مَمْدُوحِهِمْ ؛ وَقَدْ جَمَعُوا إِلَى طَلَاقَةِ لِسَانِهِمْ وَحَضُورِ بَدِيهِتِهِمْ مَنْظَرَهُمْ
الْمُضْحِكُ فِي مَلْبَسِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ ، فَزَرَّتْ خَارِجَ الْعِمَامَةِ ، وَطَبَّلَةَ تَحْتَ الْإِبْطِ ،
وَحَرَكَاتٌ يَدُورُ مَعَهَا زَرُّ الْعِمَامَةِ كَأَنَّهُ نَحْلَةٌ ، وَتَحْرِيكُ لِعَضَلَاتِ وَجُوهِهِمْ كَأَنَّهُمْ
قِرْدَةٌ ، وَهَكَذَا . وَسُمُّوا « أَدْبَاتِيَّةً » جَمْعُ « أَدْبَاتِي » وَهِيَ لِقَطْ سُخْرِيَّةٌ لِأَدِيبٍ .
فَرَّ هَذَانِ الرَّجُلَانِ مِنْ طَائِفَةِ « الْأَدْبَاتِيَّةِ » عَلَى الْحَاضِرِينَ حَتَّى وَصَلَا إِلَى عَبْدِ اللَّهِ
نَدِيمٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا :

أَنْعَمُ بِقَرَشِكَ يَا جَنْدِي وَالْأَا كَسْنَا أَمَانَ يَا أُنْدِي

أَحْسَنُ أَنَا وَحَيَاتِكَ عِنْدِي بَقِيَ لِي شَهْرَيْنِ طُولُ جَوْعَانِ

فأجابه عبد الله نديم على البديهة :

أما القلوس أنا مدبشي وانت تقول لي ما مشيشي
يطلع على أنا حشيشي أقوم أمانص لك لوزدان

فرد « الأدباتي » ، ورد عبد الله نديم ، وظلا كذلك نحو ساعة ، ثم غلب
« الأدباتي » فانصرف مهزوماً .

ونقل السيد على أبو النصر القصة إلى شاهين باشا كنج ، فاستطرفها جداً ،
وخطرت له فكرة طريفة أيضاً ، أن يقيم حفلاً عاماً ، يدعو فيه كبار « الأدباتية »
والزجالين ويدخلون في مساجلة مع عبد الله نديم ، فيكون منظرًا لطيفاً ، ومحفلاً
ظريفاً . ففعل ونصب سرادقاً أمام بيته ، وأحضر رؤساء هذا الفن ، وشرط
عليهم أنهم إن غلبوا كافأهم ، وإن غلبوا ضربهم ، فرضوا . واستمرت المساجلة
نحو ثلاث ساعات ، غلب فيها النديم ، فكانت الحادثة سبب شهرته بين
الأدباء والظرفاء .

لقد أخذ بعضهم عليه — فيما بعد — هذا الحادث ، وعيروه به ، وقالوا إنه
رضى أن يقف موقفاً يساجل فيه المستجدين ، وأن يكون « أدباتياً » مثلهم ،
ينازلم ويغال بهم على ملاء^(١) من الناس ، فمثله مثل المصارعين أمام « الزفة » ،
ولا يرضى لنفسه هذا الموقف إلا وضيع النفس ساقط الهمة .

والحق أن وضع المسألة هذا الوضع فيه كثير من التزم^(٢) والتعنث ، كالذى
تعرض على مسامحة الفكاهة الحلوة فينتقد فيها خطأ نحويًا أو لفظًا لغويًا ، وكن
ينتقد الشيخ الوقور على ما كان منه أيام الصبا ، والغنى الواسع الثراء على ما كان
منه أيام البؤس والشقاء ؛ فالمسألة لم تعد أن تكون طرفة لطيفة ، وفكاهة

(١) ملاء : جمع من الناس .

(٢) التزم : التخرج والتوقر .

ظريفة ، وقوانين الظرف تبيح من البحبحة في مجالسه مالا تبيحه مجالس الجدد والوقار .

أخيراً عاد إلى مسقط رأسه بالإسكندرية سنة ١٨٧٩ م في نحو الخامسة والثلاثين ، وهو أكثر خبرةً بالدنيا فيما لقي من عطاء ووجهاء وأدباء ، وفيما رأى وسمع وعمل في القصر العالى أيام كان موظفياً في تلغرافه ، وفي التجارة أيام تاجر وأفلس ، وبأخلاق الفلاحين أيام كان يعلم أولاد أحد « محمد م » ؛ ولكنه دخلها كما خرج منها صفر^(١) اليدين .

عاد فرأى في الإسكندرية منظرًا جديدًا لم يكن أيام كان بها ، كانت المجالس الأدبية يوم فارقها تتحدث في غزل أبي نواس ، ووصف البُخترى ، وهجاء ابن الرثومي ، ومدح الشعراء في إسماعيل ، وفكاهات الشيخ على الليثي ؛ فإذا انتقلوا من ذلك فإلى من عارض شعر هؤلاء من المخدثين ، وما أنشأه الناشئون من سمار المجلس في مثل هذه الأغراض ؛ ولما عاد إليها وجد المجالس تتحدث في حالة البلاد ووقوعها في أسر الدين ، وفي الدول وتدخلها ، ورأى جمعية سرية تسمى « مصر الفتاة » يجتمع أعضاؤها فينقدون هذا كله في صراحة وحجاسة ؛ والأدب يتحوّل فيأخذ شكل الكلام في الأمة ومصالحها ، وآلامها وآمالها ، ويحتل ذلك مكان غزل أبي نواس ، وشعر صريع الغواني ؛ والنفوس بفضل تعاليم « جمال الدين الأفغانى » وصحبه نائرة تنطلق إلى نوع من الأدب غير الذى كان ، وتجذ غداءها في الصحف السياسية والمقالات النقدية ، فيشتغل في الصحافة من هذا النوع « أديب إسحق » و« سليم نقاش » في جريدتهما « مصر » و« التجارة » ، ويمدّهما جمال الدين وتلاميذه بمقالاتهم وإرشاداتهم .

(١) الصفر : الخالي .

فأعد عبد الله نديم نفسه للأدب الجديد والمطلب الجديد ، وانغمس في هذا التيار ، وحوّل قلمه في هذا الاتجاه ، مُمدِّد هذه الصحف بمقالاته في مثل هذه الموضوعات ، فلَقِيَ من النجاح ما لقت إليه الأنظار ، وكان له فضل كبير في إدراك أن الكتابة في الموضوعات السياسية إنما يناسبها أسلوب متدفق سريع مرسل لا يقيد السجع إلا قليلاً ، لينسجم وحركات النفس المتحمسة الثائرة .

وفكر مع بعض أصحابه من أعضاء جمعية « مصر الفتاة » أن يجوّلوا من جمعية سرّية إلى جمعية علنية ، تعمل جهاراً في الأعمال المشروعة ؛ وجدّ هو وصحبه يجمعون المال لها من أعيان الإسكندرية ، وسمّوها الجمعية الخيرية الإسلامية ، (وهي غير الجمعية القائمة الآن بهذا الاسم) . وكان من أهم أغراضها إنشاء مدرسة تعلم الناشئة على نمط غير النمط الجاف الذي تسير عليه مدارس الحكومة إذ ذاك ، فيضيفون إلى تعليم مبادئ العلوم بث روح الوطنية والشعور القومي في الأمة ، وقد كان هذا غرضاً جديداً دعا إليه الشعور القومي الذي كان في طور التكوّن .

وتمّ ذلك كله ، فُجِّع المال ، وأنشئت المدرسة ، وجُعِل عبد الله نديم مديرها ، وافتتحها بخطبة رنّ صدّأها في الثغر ، وكان ذلك في آخر أيام إسماعيل ، وأقبل عليها كثير من أبناء الفقراء والأيتام ، ووُضع لها برّ نامج يحقق الغرض ، وتكفل هو بتعليم الإنشاء فيها والأدب ، وأخذ يمرّن الطلبة على الخطابة والتمثيل ، وعلى الجملة نفخ فيها من روحه ، ولعلها أول جمعيةٍ مصريةٍ إسلاميةٍ في مصر أسست لمثل هذا الغرض .

ثم وثق الصلة بين المدرسة والقصر ، وكان الخديو إسماعيل قد عُزِل وحلّ محله الخديو توفيق ، فتقرب النديم إليه واستزاره المدرسة فزارها ، ورجاه أن تُنسب

الرياسة لولى عهد «عباس» . فقبل . وأغرم بتعليم التلاميذ الخطابة، فكان ينتهز كل فرصة لإقامة الحفلات يخطب فيها ، ويحضر الخطب لتلاميذه ليخطبونها ، ثم يمرّ بهم أن ينشئوا الخطب بأنفسهم ، ويصلح خطأها ويرشدهم ، فأسس بذلك نخبة يحسنون التحرير ، ويحسنون القول . ولم يكتف بذلك بل خرج بالمدرسة إلى ميدان الحياة العامة ، فكان يحضر بعض الروايات التمثيلية في نقد بعض الصيوب الاجتماعية ، ويمثلها هو وتلاميذه في بعض الملاحى العامة ؛ من ذلك أنه أنشأ روايتين اسمهما « الوطن وطالع التوفيق » و « العرب » ومثلهما في « تياترو زيرنيا » ، حضرها الخديو توفيق ، ونجح فيهما نجاحاً أعلى ذكره .

ولكن ظهر فساد في الجمعية نسبه إليه ، ففصل من المدرسة ومن الجمعية .

عند ذلك اتجه إلى إنشاء صحيفة ، وحسب إليه ذلك سابقة اتصاله بصحيفتى أديب إسحق وسليم نقاش ، ومرانته على الكتابة فيهما ، وشوره بأن الناس أُعجبوا بما كتب ، وأنه كان يكتب فيستغل أصحاب الصحف مقالاته مادة ومعنى ، فلا يؤجرونه على ما كتب ، وكثيراً ما يَضُّون عليه حتى بذكر اسمه في ذيل مقالاته ، بل يتركون القارئ يفهم أنها لهم ومن إنشائهم .

فأخرج صحيفة سماها « التنكيت والتبكيت » ، وفي هذا الاسم دلالة على غرضه وأسلوبه ، فهو يرمى إلى تأنيب المصريين على ما وصلوا إليه ، في أسلوب قد يكون لاذعاً وقد يكون مضحكاً .

وظهر العدد الأول منها في ٦ يونيه سنة ١٨٨١ ، ودعا فيه الكتاب أن يؤافوه بمقالاتهم ونتاج قرائحهم على النهج الذى رسمه : « كونوا معى فى للشرب الذى التزمته ، والمذهب الذى انتحلته ، أفكار تخيلية ، وفوائد تاريخية ، وأمثال أدبية ، وتبكيت ينادى بقبح الجهالة ، وذم الخرافات ، لتعاون هذه الخدمة على

مُخِرٍ ما صرنا به مُثَلَّةً^(١) في الوجود ، من ركوب مَثْنِ الغَوَايَةِ ، واتباع الهوى ،
اللَّذِينَ أَضَلَّانَا سِوَا السَّبِيلِ » .

وفي الحق إن هذه الصحيفة كانت عَجَبًا في موضوعاتها وأسلوبها .
انظر العدد الأول ، تجد تنكيته وتبكيته لأكبر المصائب التي كان يحسها
ذلك العصر : مقال عنوانه « مجلس طبي لمصاب بالأفنجي » ، وهي قصة شاب
صحيح البنية ، قوى الأعصاب ، جميل الصورة ، لطيف الشكل ، في رقة ألقاظ
وهذوبة كلام ، وفي عزة ومنعة لا يشاركه فيها مشارك ، يلتفتُ حوله أهله يعززونهُ
ويؤازرونهُ حتى لا تمتدَّ إليه يدُ عدوِّ ، ولا حِيلَ محتال . وبينما هو في ذلك تسلسل
إليه أحد الماكرين يتظاهر بالصلاح والتقوى ، ويُضمر الختَل والغدر ، فأسلمه
أهله إليه انخداعاً به . فعرضه هذا الماكر على الأسواق يُرِيه من الغواني من
تعارضُ الشمس بحسنها ، وتكسِفُ البدر بنورها ، فنانعَ حيناً ، ولكنه رأى
أهلَ بيته قد وقعوا في مثل هذه الغَوَايَةِ ، وانغمسوا في مثل هذه الضلالة ، فسار
سَيْرَهُمْ ، وترك النَّفَارَ والإياء ، وسار في الطريق الذي رسمه المنافق الخداع ، فما
سار فيه حتى أصيبَ بالداء الأفنجي (الزُّهْرِيّ) فاصفرَ وجهه ، وارتختُ
أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، وغارت عيناه ، وتشوّه وجهه ، وتبدلت محاسنه
بقبايح تنفر منها الطباعُ ، وتمكن الداء منه ، وسرى في دمه وعروقه ، فصار يقلب
أطرافه لعله يجد من قومه من ينقذه من مرضه .

واجتمع الأطباء من قومه يفحصون الجسم ، ويشخصون مرضه ، ويقفون
على أصله ، ويركبون الدواء ليوقف سريان الداء ، وتعلق بهم أهل المريض
يسألونهم الإسراع في معالجته ، والاجتهاد في دفع مصابه ، فطمأنهم الأطباء
ونصحوا لهم بالهدوء والتحرز من كانوا السبب في الداء ، حتى لا يُفسدوا العلاج ؛

(١) التلثة : ما حدث لقوم من عذاب يكونون به عبرة لمن بعدهم .

وابتدأوا يعملون بمشورة الأطباء ويبدلون الجهد في معالجته . . .
وواضح أن هذه قصة رمزية ، أراد أن يصور فيها شعور الناس في هذه
الفترة بعد ما كان من الإسراف ، ووقوع مصر في الديون الباهظة ، وتدخّل الدول
الأجنبية ، من مراقبة ثنائية وإنشاء صندوق الدين ، وما إلى ذلك ، كما يصور
بها ألم الناس من هذا المرض الأفرنجي ، وأملهم في النجاة منه بسمى عقلائهم ،
وتفكير أولى الرأي فيهم — كل ذلك في أسلوب روائي مفهوم .
قد كانت هذه المسألة هي صميم المسألة المصرية ، ومشكلتها الكبرى ، فبدأ
بها على هذا النحو ، وعالجها هذا العلاج ؛ وكانت بارعاً في التورية بكلمة
« الداء الأفرنجي » .

وبلى ذلك مقال في « عربي تفرنج » يصف فيه شاباً من صميم الفلاحين ،
تعلم في مصر ، ثم في أوربة ، وعاد إلى بلاده يُسنِّه أباه لما قابله على المحطة وقبّله ،
كيف يقبّله ، وبطالبه أن يُسلم عليه بيديه فقط ، ويكتفى بأن يقول له « بُن أرفيه »
وينسى لفته ، حتى اسم البصل ، فهو لا يعرف إلا أن اسمه « أونيون » — ويختم
هذا بالمغزى من القصة ، وهو أن لا أمل في مثل هؤلاء إلا إذا حافظوا على لغة
قومهم وعاداتهم ، وصرفوا علومهم في تقدم بلادهم .

ثم يقص قصة مومنين اجتمعوا في بيت أحدهم ، دخل عليهم فوجدهم
ساهمين^(١) لا يتكلمون ولا يتحركون ، فظنهم يفكرون في أمر خطر شغل
أذهانهم ، وعقد لسانهم ، كتفكيرهم في تقدم الصنائع في أوربة ، وكيف يفعل
ذلك في مصر ، أو يفكرون فيما يزيد ثروتهم ، ويضمن التقدم في عملهم ؛
ثم يتبين بعد ذلك أنهم إنما اجتمعوا لتعاطي « الكيف »^(٢) ، وقالوا مالنا وللدنيا
وما جرى فيها ، ومالنا وللصحف والتأخرات ، ونحن كلنا بحمد الله في غنى عظيم ،

(٢) « الكيف » : الخمر .

(١) ساهمين : عابدين .

عندنا الخدم الذين يقومون بأعمالنا ، وقد خلف لنا آباؤنا من المال ما لا تقنيه الأيام — فلا نخرج من بيوتنا إلا للمسامرات بالمضحكات والنكات اللطيفات . ثم قصة ترمي إلى نقد ما كان يجري بين العامة من اجتماعهم في القهوة ، وسماعهم للقصاص (الشاعر) ، وانقسامهم إلى معسكرين : متعصب لعنترة ، ومتعصب لزُغْبَة ، وما كان من أحدهم — وقد ختم القصاص الليلة بوقوع عنتره أسيراً — إذ ذهب إلى ابنه وأيقظه من نومه وأمره أن يقرأ في الكتاب حتى يخلص عنتره من الأسر ، وإلامات كدأ ، فلما لم يطمعه ابنه ، وأفهمه أن هذا تخريف في تخريف ، نزل عليه بعصاه حتى أدماه . والجنون فنون .

وبلى هذه قصة تمثل الفلاح الجاهل ، والمرابي الماكر ، إذ أراد الفلاح أن يقترض منه مائة جنية ، فأعطاه سبعين ، وكتب عليه « كبيالة » بمائة وعشرين ، وحسبها كما يأتي : المائة فأنثتها عشرون ، تخضم من المائة فيكون الباقي سبعين ، وتضم الفائدة فيكون عليه مائة وعشرون ؛ ويقتنع الفلاح بذلك لجهله بأبسط مسائل الحساب . ثم يقدم الفلاح للمرابي قطناً وقمحاً عنهما الحقيقي ١٢٥ جنيهاً ، يحسبها المرابي بأربعين ، ويقالطه أغلاطاً مضاعفة حتى يجعله مديناً بمائتي جنية وعشرة ؛ كل ذلك والفلاح في غفلة لا يدري ما يصنع نه — فإذا عوتب المرابي هل ذلك قال : ماذا أصنع ! إن الفلاح حمار ، وأنا أريد أن أكون غنياً كبيراً في خمس سنين !

ثم قصة غنى كبير بنى بيتاً فخماً ، وأثنه أثنائاً بديماً ، وكان من أثنائه مكتبة كبيرة ، فلما أتى ذلك كله عرضه على الزائرين ، فسأله أحدهم عن المكتبة وما تحوى ليعرف أى نوع من العلوم والفنون يهوى ، فقال الغنى صاحب البيت : لقد دخلت بيت فلان وفلان فرأيت في مضيئة كل منهم خزانة كتب عليها ستارة خضراء وبجانها منفضة من الريش ، والخدام كل يوم ينفذها

ويعسح الزجاج والحزاة ، فقلت أن هذا طراز جديد في بناء البيوت وتأينها ،
فقلدتهم في ذلك ، ولا علم لي بعلم أو فن . « وهكذا أصبح الكل ناعماً
في غفلة التقليد » .

* * *

نعم ، هذا كله في العدد الأول من صحيفة « التنكيت والتبكيث » ، نقد
للسيامة العامة للبلاد ، ونقد للعيوب الاجتماعية الخاصة . كل ذلك في أسلوب يسترعى
الانتباه . فقد التزم اللغة البسيطة السهلة عن تفكير وروية ، فقال في فاتحتها : « إنه
لا يريد منها أن تكون منمقة بمجازات واستعارات ، ولا مزخرفةً بتورية
واستخدام ، ولا مفتخرةً بفخامة لفظ وبلاغة عبارة ، ولا معربةً عن غزارة علم
وتوقد ذكاء ؛ ولكن أحاديثُ تمودناها ، ولغةُ ألفنا المسامرة بها ، لا تلجئ
إلى قاموس الفيروزابادي ، ولا تلتزم مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ،
ولا تُضطرَّ لترجمانٍ يعبر عن موضوعها ، ولا شيخٍ يفسر معانيها ؛ وإنما هي
في مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفي بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ،
و « نديم » يسامرك بما تحب وتهوى » .

ثم هو يدرك أن في الناس خاصةً وعامةً ، وكلٌّ يجب أن يقصد إلى تغذيته
بالأدب ، وإشعلره بوجوه النقد ؛ لذلك يختار موضوعات الخاصة فيكتبها باللغة
الفصحى كموضوع « الداء الأفرنجي » ، فهو موضوع دقيق لا يقدره قدره
إلا الخاصة ، أما الفلاح والمرابي وسماعو القصاص فسكتوبة للعامة ، فيجب أن
تكتب بلغتهم العامية . وهو في اللغة العامية ماهر كل المهارة ، يعرف أمثالهم وأنواع
كلامهم ، ويضع على لسان الخادم والسيد ، والمرأة والرجل ، والفقير والغني ،
والماكر والغفل ، ما يليق به ، في دقة وإحكام وظرف .

ثم هو قد فَطَنَ لشيءٍ جليل القدر ، وهو أن التعليم والنقد من طريق القصص أُجذب للنفس وأُفعل في النقد ، فأكثر منه بل كاد يلتزمه .

لذلك كله نجح في صحيفته ، ووصل نداؤها إلى أكبر عدد ممكن ، فمن كان قارئاً قرأ ، ومن لم يكن قارئاً سمع ففهم .

ولم يكتف بذلك ، بل نراه في عدد تال يلتفت التفاتة لها خطرهما في الإصلاح السياسي والاجتماعي ، وهي أن من أهم أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة ، واقتصارها — تقريباً — على خطب المساجد ، وهي خطب لا تَمَسُّ الحياة الواقعة بحال من الأحوال ، وإنما هي عبارات دينية محفوظة ، ومعان متكررة مألوفة ، لا تحرك قلباً ولا تضيء حياة .

فكتب مقالا قوياً في قيمة الخطابة وأثرها في تاريخ الإسلام ، ودعا إلى أن يحضّر خطب المساجد أعرف الناس بشؤون الحياة ، وأقدرهم على التأثير ، وأن تشرح هذه الخطب الموتى الحاضر في وضوح ، وتبين الأخطار المحيطة بالأمة في جلاء ، وأن يتبرع القادرون بقدر من المال يخصص لهذا الغرض ، ويتفقوا مع ديوان الأوقاف ليسمح بإلقاء هذه الخطب في المساجد ، ثم تطبع وتشر في أنحاء البلاد ، ليصل صداها إلى كل قرية وبلدة ؛ وأعلن استعداداه للاشتراك في إعدادها ؛ ووضع خطبة نموذجية توضح غرضه ، تتضمن المحافظة على حقوق البلاد ، والنهي عن الظلم والبغى ، والدعوة إلى الائتلاف لمواجهة الأخطار التي تظهر دلائها في الأفق ، والاتحاد مع المواطنين من غير نظر إلى اختلاف الدين ، والتذكير بمجد مصر السابق ، والائتلاف حول الخليفة والحديو ، والتحذير من تمكين الأجنبي من وضع يده على سياسة البلاد ، والتحرّز من إتيان عمل يتخذ وسيلة لتدخله ، ومعاملة النزلاء الأجانب بالحسنى ، من حفظ حقوق تجارتهم ، وعدم الإساءة إليهم . هذه هي المعاني التي رأى أن الحاجة ماسةٌ إليها في ذلك الوقت (في أول

حكم الخديو توفيق قبيل الثورة العراقية) ، صاغها صياغةً دنيئةً تناسبُ صلاة الجمعة ، فبدأها بالحمد لله ، والثناء على رسوله ، وختمها بالحديث الشريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يُشدُّ بعضه بعضاً » . — وقد حقق « الزديو » أخيراً فكرة عبد الله نديم في إذاعة الخطبة شكلاً ، ولكن لما تحقق فكرته موضوعاً . وانتهت هذه الصحيفة على هذا الوضع .

لم يكن في مصر إلى أواخر عهد الخديو إسماعيل رأى عام يشعرُ بظلم ، وإن شعر فلا ينطق ، لأن عُنْف الاستبداد أزماناً طويلةً أَمَات الشعور وأخرس الألسن ؛ حتى تدخلت الدول الأجنبية في شؤون مصر المالية ، فبدأ الشعور ينتبّه ، وغداه الخديو إسماعيل نفسه وجراًه ، لإحساسه بثقل التدخل وخشيته من عاقبته ؛ فأول معارضة من مجلس شورى النواب للحكومة كانت بإيمارٍ منه ، ولولا ذلك لم يجرؤ ، ومظاهرة الضباط ومهاجمتهم لنظارة المالية لتأخير رواتبهم كانت بتدبيره ليتخلص من وزارة نوبار التي تُمَالَى^(١) الأجانب في هذا التدخل ؛ واجتماع أعيان البلاد في دار السيد البكري ، ووضعهم اللائحة الوطنية — التي تعهدوا فيها بوفاء ديون أوربة وضماتها وعدم تدخل ممثلها في شؤون البلاد — كانت فكرةً بثها الخديو في أذهانهم ؛ وكان هذا أول ما أشعر الناس بقوتهم وحاجة الحاكم إليهم ، ونبّه الرأي العام إلى أنه يستطيع أن يقف الظلم ويطالب بالحقوق ، وأن من حقه مراقبة الولاة والحكام ورفع صوته بنقدم ؛ وهذا الشعور إذا وجد في أمة كان لا بد له من قادة يشعرون شعور الناس ، ويصوغونه صياغة قوية يُلهمون بها شعور من شعّر ، وينبهون بها من لم يشعر ، فكان ذلك في السيد جمال الدين

(١) تمالي : تناصر .

ومدرسته ، وجاء الخديو توفيق ونواة الرأي العام قد عُرِست ، وتتابع الأحداث الخطيرة بغذيتها وينميتها ، والنفوس مستبشرة بتوايته ، فقد كان سمحاً رحباً ؛ وكان قبل عزل إسماعيل يتصل بالسيد جمال الدين ويحبذ آراءه في الإصلاح ، فلما تولى قرّبه إليه وقال له : أنت موضع أملى في مصر ، ودعا شريف باشا لتشكيل الوزارة ، « وصرح برغبته في تحقيق آمال الأمة ، وإخراجها من الحالة السيئة التي هي فيها بالاقتصاد في نفقات الحكومة ، والاستقامة في الوظائف العامة وإصلاح القضاء والإدارة ، وتوسيع نظام شورى القوانين ، وإصلاح المحاكم والمجالس ، والسعى لتعميم التربية والتعليم ، وتوسيع دائرة الزراعة والتجارة ، ومنح الحرية للعاملين في أعمالهم » .

ففرح الناس وهللوا لهذه الوعود القيمة ، وتفتحت آمالهم ، ولكن الحكم الشورى لم يُرض طوائف كثيرة — لم يُرض الحاشية ، وكان السيد جمال الدين أشار على الخديو توفيق بتغيير حاشية إسماعيل ، فأغضبهم عليه . قال الشيخ محمد عبده : « ووكيل دولة فرنسا أخذ يسعى في إقامة الموانع دون إعطاء حق النظر في تصحيح الميزانية ، وتقرير الأمور المالية ، ودعا وكيل إنجلترا إلى مساعدته في إقناع الخديو بضرر هذه الأوضاع الجديدة » فتغير رأى الخديو توفيق في ذلك كله ، فاستقال شريف باشا ، ونفى السيد جمال الدين ، وأخذت الأمور تجري آخر كان سبباً من أسباب الثورة .

ثم جاءت وزارة رياض باشا بعد وزارة شريف . وفي تاريخ مصر الحديثة كان شريف باشا دائماً رمزاً الحكم الشورى ، ورياض باشا رمزاً الحكم الاستبدادى ، وكلاهما كان يلتفت حوله كثير من الخاصة ؛ فحول شريف جماعة ترى أن الحكم الشورى هو الوسيلة الوحيدة لإنقاذ البلاد من الفوضى ، والأمل الوحيد في وقف كل سلطة عند حدها، والباعث الوحيد للأمن والحرية في نفوس

الأفراد ؛ وحول رياض جماعة ترى أن الحكم الشورى لا يصلح إلا إذا نضجت الأمة وعرفت شؤونها ومجاري السياسة حق معرفتها ، ورزقت من الشجاعة في القول والجدد في العمل قدرأ صالحاً ، وإلا كان الحكم الشورى نقمة . والأمة لم تبلغ هذا الحد . وكان الجدال والنزاع يدور على الفكرتين في الصحف والمجالس ، وعلى كل حال فقد كان هذا درساً لتنوير الرأي العام في السياسة ، وتفتيح الأذهان للنظر في المسائل العامة .

وكانت شخصية رياض شخصية معقدة - ذكي ، خبير بالإدارة ، قوى العزيمة ، صبور على العمل ، معتد بنفسه ، لا يرى بجانب رأيه رأياً ، إذا وثق بشخص لم يسمع فيه قول قائل ، وإذا أساء الظن بإنسان فإلى النهاية ؛ نزيه ، يحب الخير لمصر ، ولكن حسبما يرى هو وبالطريقة التي يراها ، قليل الثقة بالمصريين ممتلي عقيده بأنهم مملوون عيوباً ، كبير التعميم للأجانب ، معتقد بقوتهم ، يرى أنه لا يستطيع الحكم إلا بالاعتماد عليهم أو على أقوام ، لا يرى بأساً من إغضاب الخديو وإغضاب الأمة في سبيل إرضائهم ، ومع ذلك يبذل أقصى جهده في أن ينال منهم أقصى ما يستطيع لخير أمته - شديد الحب للحكم لا يعتزله إلا مكرهاً . فكانت أخلاقه هذه من عوامل التمهيد للثورة العراقية .

ألغى الشخيرة العامة ، كإقامة الجسور على النيل ، وحفر الترعة من غير أجر ، والشخيرة الخاصة ، كعمل الفلاحين في أرض سيدهم من غير مقابل ؛ ونفذ ذلك في غير هوادة ، فأغضب بذلك الأعيان ؛ وأعطى السلطة العامة للمديرين ، فأساءوا السيرة ، وضيق على الصحف ، وعطل بعضها ، فعمل أصحابها سرّاً بعد أن كانوا يعملون جهراً ، وسافر بعضهم إلى أوربة يصدر الجرائد في الطعن عليه ؛ وطارض الخديو في أن يمنح الرتب والنياشين لمن يراهم أهلاً ، كما عارضه في كثير من رغباته

فغضب الخديو عليه ، وعاقب « رياض » المدير الذى سخر الأهالى فى حفر ترعة خاصة بالخديو . وتصرف ناظر الحربية فى وزارته تصرفات أغضبت رجال الجيش المصريين ، فطلب عرابى وأصحابه تشكيل مجلس عسكرى لتحقيق الشكايات ، فقال رياض إلى إجابة مطلبهم ، ولكن أشيع عنه أنه هو الذى يمانع فى ذلك ، ففضبوا عليه — كل ذلك وهو لا يريد أن يتخلى عن الحكم .

تبلبت الأفكار واضطربت ، وكلها تتفق فى وجوب تغيير الحال ، وإن اختلفت أسباب غضب كل طائفة ، فالأعيان يحبون رجوع سلطتهم فى تسخير الناس ، والضباط المصريون يريدون العدل بينهم وبين الشراكسة ؛ وبعض ذوى رأى يرون أن هذا كله تأييد لوجهة نظرهم فى أنه لا يصلح الأمور إلا نظام الشورى ؛ والخديو ناظم على رياض لخشوته ؛ وبعض الأجانب لا يسرهم ما قام به رياض من ضبط الأمور المالية . كل هذا هياً للثورة العرابية .

وتطورت مطالب العرابيين من عدل بين الضباط ، إلى تغيير شكل الحكومة من نظام استبدادى إلى نظام شورى ، إلى التهييج على الخديو توفيق ، إلى المناذاة بعزله لالتجائه إلى الدول لحايته ، إلى الدعوة للجهاد فى سبيل صدّ المغيرين . واتسعت الحركة ، من حركة محصورة فى الجند والضباط ، إلى حركة وطنية واسعة تشمل العلماء والأعيان والتجار والزراع وغيرهم ؛ واندسّ وسط الحركة من يعمل لصالح أمير ليحل محل الخديو توفيق ، فجماعة تعمل لصالح الأمير حليم بن محمد على ، ومن هؤلاء صاحب جريدة « أبو نضارة » ، ومنهم من يعمل لحساب الخديو إسماعيل لإعادته ، ومن هؤلاء راتب باشا السردار ، وهكذا .

فى هذا الجو الذى صورناه صورة صغيرة جداً عمل عبد الله نديم ، واحتضنه العرابيون ، فكان خطيب الثورة وكاتبها ومشعلها .

أخذ جريدة « الطائف » بدل « التنكيت والتبكيت » ، ونقل مكانها

من الإسكندرية إلى القاهرة، وبدأها عنيفة قوية؛ تنفذ تصرفات الخديو إسماعيل في جرأة بالغة، وتشرح بؤس الفلاحين في السُخرة والعذاب المهين الذي يلقونه من الرؤساء، وما شاهده بنفسه من أحداث، وكيف ينجّر الناس قتلى من الجوع والبؤس، والإعياء والضرب، وكل رئيس يريد أن ينال حُظوةً من فوقه بالمغالة في التعذيب.

وكان عبد الله نديم في هذه الصحيفة يعبر عن آراء النواب في ضرورة الإصلاح عن طريق الحكم النيابي. وقد كتب سلطان باشا رئيس النواب إلى إدارة المطبوعات أن تعتبر جريدة «الطائف» لسان النواب المعبر عن أفكارهم، فاعترفت الإدارة بذلك، ونشر هذا رسمياً بأمر نظارة الداخلية؛ ولكن لما رأت إدارة المطبوعات عنفه وتهيبجه عطلته شهراً.

أصبح «الطائف» في الثورة العراقية لسان الدعاية لها، يذم من عاداتها، ويشجع من والها، ويلقب «عراي» بحامي حى الديار المصرية؛ ويتطور بتطورها فينقد الأوربيين وتصرفاتهم؛ وينقد الخديو توفيق لارتمائيه في أحضانهم، في أسلوب لاذع وتهكم ساخر، فإذا كانت الحرب نقلَ جريدة «الطائف» إلى المسكر يحرّض الجنود على القتال، ويحرّض الشعب على تقديم المؤونة، وينشر خبر التبرعات، وكلما اشتد الأمر اشتد في تهيبجه. وقد قلت صفحاتها لاشتداد الظروف: من أربع إلى اثنتين إلى واحدة؛ وهو يهرج في أخبار الحرب فيقلب أخبار هزيمة المصريين إلى أخبار انتصار، وانتصار الإنجليز إلى أخبار هزيمة؛ وظل كذلك حتى تمت الهزيمة، وتم التسليم.

هذا عمله في الصحافة، وإلى جانب ذلك كان عمله في الخطابة.

فقد طاف في كل مجتمع يخطب، وأعطى من ذلاقة اللسان ما يستدعي المعجب، فما هو إلا أن يحرك لسانه حتى يتدفق وتنهال عليه المعاني والألفاظ

انهيالا . وقد نشر في البلاد فن الخطابة ، وعلم كثيراً من الناشئة أن يخطبوا في المحافل ، وأعطى لهم المثل بمقدرته وكفايته ، وبدأ ذلك أيام كان يعلم الإنشاء والأدب في مدرسة الجمعية الخيرية في الإسكندرية . فلما أعلن الدستور في أول عهد توفيق (٧ فبراير سنة ١٨٨٢) ، سرت في النفوس هزة فرح لا تقدر ؛ وأمل الناس أن الحكم النيابي سيصلح كل مفسد الماضي ، ويرسم كل وسائل السعادة للحاضر والمستقبل — واشتاق الناس أن يسمعوا الكلام الكثير في هذا الموضوع ؛ فكان عبد الله نديم وصحبه وتلاميذه الذين يُفنون للناس بآمالهم ؛ فأقيمت الحفلة تلو الحفلة يُدعى إليها النديم وفرقة ليخطبوا ؛ والنديم هو قطب الرّحى : يخطب أولاً ، وكلما خطب خطيب وتناول موضوعاً قام النديم بعده يعقب عليه ، ويتخذ من كلامه موضوعاً يُطنب فيه ؛ وفي هذه الحفلات يحضر النظار وكبار الضباط والعلماء والنواب والأعيان ؛ فتطرب نفوسهم لهذا طربهم من عبده الحمولى ومحمد عثمان .

هذه حفلة تقيّمها جمعية المقاصد يفتتحها « النديم » بقصيدة ، ثم يشكر الجمعية على احتفالها بالدستور ، ويتلوه إبراهيم اللقاني فيبين الفرق بين عهد الاستبداد وعهد الشورى فيعقبه النديم يكمل موضوع الفروق بين العهدين ؛ ثم يقوم الشاب مصطفى باهر — باشا فيما بعد — فيتكلم في الحث على الاجتهاد في العلوم والفنون ، ويستحث الأغنياء على إنشاء بنك أهلى يحمى الأهالى من استغلال المرابين ، ويختم ذلك بالدعوة إلى الألفة والاتحاد ، فيقوم بعده النديم يتكلم في هذا الموضوع ؛ ثم يقوم الشيخ محمد عبده فيبين مزايا الحكومة النيابية ؛ ويطلب بوجوب أن يكون النواب من المعلمين ، ويحث على تعميم التعليم ، وعلى احترام حرية القول والكتابة ، وسن القوانين المبنية لحقوق الأفراد وواجباتهم ؛ ويقوم « النديم » بعده معقباً على قوله ؛ ثم يقوم أديب إسحق فيتكلم في شعور النواب

وتضامنهم مع النظار في كل ما يجلب الخير للبلاد، ويتلوه النديم؛ ثم يقوم فتح الله أفندي صبرى (فتحى باشا زغول) فيخطب في الحث على الاتحاد والثبات، وينتهى هذا الاجتماع.

وتتكرر أمثال هذه الاجتماعات، ويقال فيها مثل هذه الخطب، ويقوم بالدعوة إليها كبراء البلد؛ وكلها على غرار الحفلات السابقة، عمادها عبد الله نديم وإن اختلفت بعض الموضوعات؛ كدعوة إبراهيم اللقاني إلى التمسك بأسباب القوة والاتحاد، والحث على مجانبة الخوف والجبن، وخطبة فتحى زغول في الأخذ بالمبادئ التي تُمدّن البلاد، والدعوة إلى إنشاء جمعية تفتح مدارس ليلية يتعلم فيها من لم يسمح له عمله بالتعلم.

ويُدعى عبد الله نديم إلى حفلة في الإسكندرية على هذا الطراز. وكل هذه الحفلات تُوصف في جريدة الوقائع المصرية، ويُذكر فيها خلاصة ما دار فيها من خطب، فتنتشر في البلاد.

فلما عطلَّ الدستور، وتطورت الأمور، وكانت الثورة العرابية، تحوّلت خطبُ عبد الله نديم إلى موضوع الثورة، وكان يخطب في كل مجتمع: في الأزهر وطلبته، والجيش وجنوده، وفي حفلات «الأفراح»، فما يكون مجتمع لترض من الأعراس إلا ويطلع عليهم عبد الله نديم وجماعة من ناشئته يمتلئون المكان العالي ويخطبون في موضوعات الثورة، حتى كان إذا سئل محمد عثمان «الغنى»: أين تغنى الليلة؟ يقول: «في الفرح الغلاني مع عبد الله نديم» وهو في هذا الموقف لا يتحرّج من التهريج، فيقول مثلاً في بعض خطبه: إن طوابي الإسكندرية إذا أطلقت مدافعها يبلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب، ومدافع الآستانة إذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر. فكيفما جالت الأساطيل الإنكليزية فهي تحت رحمة مدافعنا؛ فيصنق الناس. ويخطب «فتحى زغول»

فيقول النديم : ألا تعجبون لما أبدى هذا التلميذُ في خطبه من العلم والبيان والتفنن في المواضيع ، مع أن جلادستون خطيب إنجلترا لا يتناول إلا موضوعاً واحداً ؟ ! ويخطب مصطفى ماهر فيقول النديم : « أشهدكم أيها الناس أن أمةً يكون هذا مقدار استعداد التلميذ فيها لا يفلها أحد في أمرها » .

على كل حال كان عبد الله نديم لسان الأمة في عهده بخطبه ، وقلتها بصحفه ، ينتقل في الأقاليم ولا يكل ولا يمل ، وينشر آراءه ومشاعره في أكبر عدد ممكن من الأمة . وبذلك كله ساعد على نمو رأي عام مصري يؤمن بالحكم الشورى ، ويتطلع إلى الإصلاح في الأمور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . فإن كان السيد جمال الدين رسول الخاصة في هذه المعاني ، فعبد الله نديم كان رسول العامة ؛ فطر المعاني التي يدعو إليها جمال الدين إلى الشعب ، وأوصلها إلى التاجر في متجره ، والفلاح في كوخه ، والتلميذ في مدرسته . كان السيد جمال الدين بحكم أرسقراطيته في نشأته وثقافته ، والبيئة التي تحيط به ، ولنته في كلامه وكتابته ، معلم الخاصة ؛ وكان عبد الله نديم بحكم ديمقراطيته في النشأة والعلم والبيئة واللغة معلم العامة .

لسنا الآن بصدد الحكم على الثورة العراقية وما نفعت وما أضرت ، والمسئولين عنها ، والمآخذ عليها ، وإنما كل ما يعنيننا الآن أن نقول : إنه إذا تبخرت أقواله التي دعت إليها فورة الثورة ، وتبخرت أنواع تهريجه وتهويشه ، بقي لنا جانب كبير من جوانب نفع عبد الله نديم في هذه الحركة ، وهو إيقاظ الشعور في الشعب بحقه في الشكوى من الظلم ، والمطالبة بالعدل ، وإفهامه أن الحاكم يجب أن يكون مسئولاً أمامه ، وأن هناك نوعاً جديداً من الحكم غير الذي ألفه : من رجوع الأمور كلها إلى إرادة الحاكم يفعل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل ، وهذا النوع الجديد هو حكم البلاد نفسها بنفسها ممثلاً في نوابها ، وأن مصير

للمصريين لالدولة العلية ، ولا لأية دولة أجنبية . وهذه معانٍ قد كانت عند خاصة الخاصة ، فنشرتها الثورة وعبد الله نديم في العامة .
ولئن أخفت الثورة فيقظة الرأي العام — إلى حدٍّ ما — وشعوره بنفسه ، وتنبهه لحالته الاجتماعية والسياسية لم يخفق ، ويتجلى ذلك على الأخص إذا قورن بينه وبين حالته من قبل .

— ٤ —

انتهت الثورة العرابية بالفشل والهزيمة المنكرة ، وكانت الهزيمة الخلقية أفسى من الهزيمة الحربية ؛ فقد ذلَّ أكثر قواد الحركة ، وتفكروا أكثر من كان يناصرهم ، وبدأت السَّمايات ^(١) تَدبُّ ، وكل من كانت له خصومة مالية أو عائلية سعى في الإيقاع بخصمه ، يتهمه بعمل من أعمال الثورة ، وامتلأت المجالس المشكَّلة للنظر في الدعاوى والتهم ؛ وأخذ كثير ممن اشتركوا في الحركة يتبرءون مما قالوا وما فعلوا . وإن استطاع كثير منهم أو حاول تبرئة نفسه ، فعبد الله نديم ليس بمستطيع شيئاً من ذلك ، فخطبه لا ينساها أحد ، وأقواله مسجَّلة عليه في جريدة « الطائف » ، فلا بدَّ إذا حوكم أن يُحكَّم عليه بأشدَّ العقوبات ، وكان أغلبُ الظنِّ أنها الإعدام .

لقد فكر عرابي هو ومن معه أن يطلبوا العفو من الخديو ، وكتبوا رسالة وبعثوها مع وفد إلى الإسكندرية لتقديمها إليه ، ثم بدا لهم أن يغيروا بعض نصوصها ، فبعثوا بصيغة أخرى مع عبد الله نديم ؛ فلما وصل إلى كفر الدوَّار علم أن الخديو رفض العريضة الأولى وأمر بالقبض على بعض رجالها ؛ فعاد « النديم » إلى القاهرة ، وأيقن بالهلاك ، فأعدَّ العدة للهرب والاستخفاء ؛ وإذا به « فصَّ

(١) : السمايات الوشايات .

ملح ذاب» ؛ تجدد الحكومة وتضع له الأرصاد^(١)، وتوجه كل قوة للبحث عنه؛ ويبعث كل من سلطان باشا ورياض باشا منشوراً لرجال الإدارة بالجد والنشاط للقبض عليه؛ وتعلن مكافأة ألف جنيه لمن يرشد عنه، والعقوبة القصوى لمن يخفيه، فيذهب كل ذلك سُدى، مدى نحو عشرة أعوام؛ وهو في كل أمره يحتال حيلة أين منها حيلة أبي زيد السروجي في مقامات الحريري؟ ويمثل روايات أين منها الروايات البوليسية المعروفة؟ .

لقد أعيا الحكومة أمره، فأصدرت عليه حكماً غيائياً بالنفي المؤبد من القطر المصري .

ها هو ذا أول مرة يذهب إلى « بولاق » ويستخفي عند صديق له وفي أياماً حتى يخف عنه الطلب، فيخرج وقد ابس « زعبوطاً » أحمر، واعتم بهامة حمراء وربط عينيه بمنديل، وأطال لحيته، وأمسك عُكَّازاً طويلاً، وتصنع أنه من مشايخ الطرق، ونزل في سفينة مع خادمه إلى بنها، فلم يفتن له أحد .

وجزع خادمه وكان أمياً، وأراد أن يرجع إلى أهله، فأيقن « النديم » أنه إذا عاد انكشف أمره، فأخذ يقرأ الجريدة يوماً، ثم تصنع الفرع وقال : « لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » . فسأله الخادم عما أفرغه، فقال « النديم » : إن الحكومة قد جعلت لمن يرشد عنى ألف جنيه، ولمن يأتيها برأسك خمسة آلاف . فخاف الخادم، وأخذ يبائع في التنكر أكثر من سيده، واستراح من هذا الباب، وظل معه طول مدة الاستخفاء . وقال هو عن نفسه في هذه الفترة : « خرجت من مصر مستخفياً فدُرت في البلاد متنكراً؛ أدخل كل بلد بلباس مخصوص، وأتكلم في كل قرية بلسان يوافق دعواى التى أدعيها، من قولى إني مغربى أو يمنى أو مدنى أو فيومي أو شرقاوى أو نجدى؛ وأصلح لحتى إصلاحاً يوافق

(١) الأرصاد : أى الجواسيس .

الدعوى أيضاً ، فأطيلها في مكان عند دعوى الشيخة ؛ وأقصرها في آخر عند دعوى السياحة — مثلاً — وأبيضها في بلد ، وأحمرها في قرية ، وأسودها في عزبة . فأحياناً كان اسمه الشيخ يوسف المدني ، وأحياناً الشيخ محمد الفيومي ، وأحياناً سى الحاج على المغربي ، وهكذا . وأحياناً كان يجتمع بمن يعرفهم فيثير عجبهم ، لأن القدرة مقدرة « النديم » ، ولكن يختلف في الشكل والصوت واللهجة ، فيقولون : سبحان الله جلّ من لا شبيه له .

وساعد على نجاحه في هذا الاستخفاء أمور ، منها : مهارته في حيله ، وإتقانه لما يدعى ؛ فإذا ادعى أنه مغربيّ تكلم بلسان مغربيّ محكم ، أو مدنيّ فكذلك . ادعى مرة — وهو في القرشية — أنه عالم يمنيّ ، وذاعت شهرته في العلم والأدب حتى بلغت القاهرة ، فأرسل إليه رياض باشا « سعد زغلول » ليسأله عن معنى مثل ورد ذكره في بعض الجرائد ولم يفهم معناه ، فقابله على أنه عالم يمنيّ وفسّره له^(١) .

وكان من مهارته في استخفائه أنه رأى جدّ الحكومة في طلبه ، فاستعان برجل من الفرنسيين يعرفه ويثق به ، فأشاع عنه أن النديم هرب إلى « ليفورنو » في إيطاليا ، ونقلت هذا الخبر جريدة « الأهرام » ، وصدق الناس ذلك ، وعنفّت الحكومة رجال الضبط على إهمالم حتى تمكن من الخروج ، فحقت عنه الطلب ، ولم يكن كل ذلك إلا خُدعة . وكتب صاحب جريدة « المحروسة » مرة بعد استخفائه بسنتين : إنه « قد تعددت الأقوال في مقرّ عبد الله النديم ، فمن قائل إنه التجأ إلى البلاد الإيطالية ، ومن قائل إنه فرّ إلى طرابلس الغرب ، ومن زاعم أنه أتى

(١) هذا المثل هو « بعلّة الورشان يأكل رطب المشان » والورشان : طائر يشبه الحمام ؛ والمشان : نوع من أجود التمر . وأصله أن جماعة عهدوا إلى خادم لهم أن يحفظ تمرهم ، فكان يأكل رطبه ويزعم أن الورشان أكله ، فقيل المثل . وهو يضرب لمن يظهر شيئاً والمراد منه شيء آخر .

السودان واتصل بالمهدى وصار له نديما ، وقال قوم إنه سارع في السفر إلى « سيلان » للاجتماع بعرايى ؛ والحقيقة فيما نعلم أنه أتى باريس في الأيام الأخيرة ، ونشر فيها مقالة أتى فيها على ذكر الحرب العرايية ، وتَدَد بالمصريين ، ونسب إليهم الضعف والجبين « إلخ .

ومنها عطف بعض الناس عليه ، وإيمانهم بأن الرواة تقضى عليهم — وقد نزل بساحتهم — أن يُخَفَّوا أمره إذا علموا ، وأن يساعده على الاستخفاء مهما أغروا بالمال ، كالذى كان من عمدة « العتوة » بمديرية الغربية ، وهو الشيخ محمد الهمشرى فقد نزل عنده وعرفه بنفسه ، فأكرم مشواه ، وأقامه في داره أكثر من ثلاث سنوات في مكان منزله باب خاص ، وزوجه ، وزوج خادمه ، فلما تُوِّفِّي دعت زوجته أكبر أولادها ، وقالت له : هل تطمع في المكافأة أو تكون كأبيك شهماً تحفظ الجار وتحمى اللاجئ ؟ فوعدها بأن يكون كأييه في حفظه ، ووفى بذلك ، حتى أحسن « النديم » بوشاية واش ، فخرج من عندهم حامداً مروءتهم . وصادفه مرة مأمور مركزٍ شركسى ، والنديم في تنقله بين البلاد ، فرفه ، فصرف جنده ثم اختلى به ، وقال : لا ضرورة لتتكرك فقد عرفتك ، وأعطاه ما معه من نقود ، ورسم له خطة السير في طريقه حتى لا يُضبط .

وكان في أول أمره شديد الحنين لأبيه وأمه وأخيه ، لا يعرف ما صاروا إليه ، شديد الشوق لمعرفة كتبه وتآليفه وأوراقه التي تركها في بيته بالإسكندرية ، ثم وسَّط الصديق الفرنسى أن يتعرف كل ذلك ويأتيه بالأخبار . فعرف الفرنسى أن أسرته تَشَتَّتْ والناس تنكروا لهم ، والأرصاد وضعت حولهم ، وأن أباه يقيم عند قريبة له في الريف ، وأن كتبه وتآليفه التي أنفق فيها تسعة عشر عاماً ، عندما ضربت الإسكندرية وهاجر منها أهلها وضعها أبوه في ثلاثة صناديق كبار وشحن بها عربةً من عربات السكة الحديدية ، فلما وصلت إلى كفر الزيات ازدحم

على القطار المسافرون من المهاجرين ازدحاماً هائلاً ، فلم يسع رجال المحطة إلا أن يرموا جميع ما بالعربة في النيل ، ومنها الصناديق الثلاثة وفيها كل ثروته العقلية . ثم لما هدأت الأحوال وخفت عنه الطلب كان يتصل بأبيه وأخيه اتصالاً منظماً . وتأتى عليه أزمات ثم تنفرج ، فهذا عيد الأضحى وهو في « برية المنذرة » يسكن وسط الحقول ، لا يساكنه أحد إلا زوجته ، ولا يجد القوت الضروري ، ويأتيه خادمه الذي يسكن بعيداً عنه يشكو له البؤس والفقر وعدم القوت في يوم العيد ؛ فما هو إلا أن يبعث له رجل من أهل البر والمروءة بما يملأ بيته قمحاً وعسلاً وسمناً وثياباً ، كما يبعث الأطلس والحريير للبس زوجته ، وشيئاً من ذلك للخادم وزوجته . وأتبع له من الفراغ ما يمكنه من إكمال نفسه بالدراسة والتأليف ، فكان إذا اطمأن في قرية قرأ ما تصل إليه يده من الكتب ؛ وكانت مكتبته في هذه الأيام مكتبة خفيفة يسهل حملها إذا دعا داعي الرحيل السريع : فكانت تفسير القرآن لأبي السعود ، وقاموس الفيروزابادي ، و « الوافي » في المسألة الشرقية لأمين شمائل ، وجغرافية ملطبرون الذي ترجمه الشيخ رفاعية . وألف فيما يعين له في الدين والتاريخ ، فكان هذا نعمة عليه لم يستطعها في أيامه الأولى . كتب لصديق له في هذه الفترة يقول : « إن سألت عني فأنا بخير وعافية ، وحالة راتقة صافية ، لا أشغل فكري بما يأتي به الليل إذا كنت بالنهار ، ولا أتعذب ذهني بتوالي الخطوب والأكدار ، ولا أتألم من طول المدة ، ووقع الشدة ؛ لا اعتقادي أن لكل شدة مدة متى انتهت جفت الأحوال ، وحسنت الحال ؛ فتراني فكري كليبي ، وقلبي نديبي — تارة أشغل بكتابة فصول في علم الأصول ؛ وأجمع عقائد أهل السنة ، بما تعظم بها لله المنة ؛ وحيناً أشغل بنظم فرائد ، في صورة قصائد ؛ ووقتاً أكتب رسائل مؤتلفة ، في فنون مختلفة ؛ وآونة أكتب في التصوف والسلوك ، وسير الأخبار والملوك ؛ وزمناً أكتب في العادات والأخلاق ،

وجغرافية الآفاق؛ ومرة أطوف الأكوان، على سفينة تاريخ الزمان؛ ويوما أشتغل بشرح أنواع البديع، في مدح الشفيح... وقد تم لي الآن عشرون مؤلفاً بين صغير وكبير؛ فانظر إلى آثار رحمة الله اللطيف الخبير، كيف جعل أيام المحنة، وسيلة للنعمة والمنة. أتراني كنت أكتب هذه العلوم، في ذلك الوقت المعلوم، وقد كنت أشتغل من مرضعة اثنين وفي حجرها ثالث وعلى كتفها رابع، وأتعب من مربتي عشرة وليس له تابع؛ أشتغل بعض النهار بتحرير الجورنال، وأقضى ليلى في دراسة الأحوال، مشتغلاً بمجالس الجمعيات الخيرية ومدارسها التعليمية، وزيارة الإخوان، ومراقبة أبناء الزمان؛ وقد نسيت الأهل والعيلة، وربما نسيت الطعام يوماً وإيلة؛ فكنت كآلة يحركها البخار، لا سكون لها ما دام الماء والنار؛ فمتى كنت أنظر للمخلقات، وأكتب هذه المؤلفات؟

ولو أن نار مصيبتى في الغير أصلاه الزفير
لكنها في ساحة من فوقها جو مطير
هو صدق إيماني وصبري للقضاء بلا نكير
ووقوف جيش عزيمتى في باب مولاي البصير

وكان في رحلته برًا بخادمه «حسين» الذي غير اسمه فسماه «صالحاً»، وزوجه، وعلمه القراءة، والكتابة، وحفظه جملة سور من القرآن، وعلمه مبادئ الفقه والتوحيد، وأتخذة صاحباً.

وتواردت عليه أيام بؤس ومحن يشيب منها الوليد، تفضب عليه زوجته وتلطمه على فمه، حتى تكاد تسقط ثناياه، وربما رأى — مع هذه الحال — أن إظهار نفسه للحكومة أهون عليه، ثم يرضاهما ويصالحهما؛ وأحياناً تتخاصم زوجته مع زوجة خادمه وتشتد الشحنة، وتهدهه كلتاها بأن تفضح أمره، فيتدارك كل ذلك بحيله؛ وأحياناً يشعر بالخطر يهدده، فيشتد في الحذر والاستخفاء، حتى لقد

استخفى مرة في قاعة مظلمة لا يتوصل إليها إلا من سرداب طويل مظلم ، يرشح الماء من أرضها لقربها من ترعة ، ولا يتمكن من القراءة والكتابة إلا على مصباح صغير يُضاء بالجاز فيملاً الحجرة دُخاناً ، ويستمرّ فيها نحو تسعة أشهر ؛ وأحياناً يبلغ به سوء الحال مع الرغبة الشديدة في الكتابة أن يصنع الحبر من هَبَاب^(١) العُرْن ، ويضيف إليه بعض قرظ السنط ، ويتخذ أقلامه من الحجّناء^(٢) . وهو على كل ذلك صبور ، يعزّيه أن يجد من أهل المروءة ما يخفف كربّه ، ويضمّد جُرْحه ؛ « فمحمد معبد » الحلاق « بشباس الشهداء » يؤوّه في بيته ، ويعمره بفضلّه ، وينفق عليه ما يحرم منه أسرته ؛ و « أحمد جوده » الفلاح يصاحبه في انتقالاته في الظلام الحالك ، ويمرّض نفسه من أجله المخاطر .

لشدّ ما أتعّب نفسه في استخفائه ، وأتعّب الناس معه ، ولكن ما أكثر ما أمتعّمهم أيضاً بأحاديثه وفكاهاته ، ووعظه وسمره .

وأخيراً نزل « بالجزيرة » فعرّفه عمدتها وكنم أمره ، ولكن رجلاً اسمه حسن الفراجي — كان جندياً ثم استُخدم جاسوساً — عرفه فكتب إلى السراي وإلى الداخلية ، فأمرت بالقبض عليه ، وذهب وكيل حكمدار الغربية ومعه قوة من الجند فالتفوا حول البلدة ؛ وأراد « النديم » الهرب بحيلة القديمة فلم يستطع ، فاستسلم . وكان من حسن حظّه أنهم لم ينتهبوا إلى أوراقه ، وكان في بعضها هجاء شديد للخديو توفيق لو اطلعوا عليه لتغير مجرى حياته . وكان القبض عليه في صفر سنة ١٣٠٩ هـ . واستخفاؤه في ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ . وأرسل إلى طنطا للتحقيق معه ، وكان وكيل النيابة إذ ذاك قاسم بك أمين ، فأحسن معاملته ، وأمر بأن ينظف مكانه في السجن ، ويضاء كما يريد ، وأن يمكن

(١) الهباب : التراب .

(٢) الحجّناء : نبات معروف بمصر .

من شرب القهوة والدخان كما يشاء ، وأمدّه بالمال من عنده . وكان هم التحقيق متجهاً إلى معرفة من آواه ؛ وهل كانوا يعرفونه أو لا يعرفونه ؟ ولكنه أنكر كل الإنكار أن يكون أحد من آواه يعرف حقيقته . ثم صدر أمر الخديو توفيق بالنفو عنه وإبعاده عن مصر إلى أية جهة شاء . فاختر ياقا ونزل بها ، فأكرمه أهلها ، واتخذها داراً جعلها منتدى للأدباء والعلماء ، وطوّف في فلسطين يشاهد آثارها ، ويحجّ إلى مزاراتها ، ويمجّلى حسن طبيعتها .

ثم مات توفيق وتولى عباس ، ففنا عنه ، وسمح له بالعودة إلى مصر سنة ١٨٩٢ فعاد وفكر طويلاً فيما يفعل وأين يتجه ، وتردد بين مصر والإسكندرية ، وأخيراً عين اتجاهه ، وقرر أن ينشئ بالقاهرة مجلة « الأستاذ » ، فكان صفحة جديدة في باب جهاده .

كانت الظروف التي تولى فيها الخديو عباس ظروفاً دقيقة ، شاب ناشئ في الثامنة عشرة من عمره ، دُعي من (ثينا) حيث يتعلم ليتولى الحكم في مصر ، ومصر قد انتهت ثورتها العرابية واطمان الإنجليز إلى احتلالها ، ووضعوا أسس نظامها ، وتمكنوا من وضع أيديهم على كل شأن من شؤونها ؛ وعباس الشاب لُقّن آراء الاستقلال والشعور بالوطنية والعزم على العمل لتسترد مصر ما فقدت ؛ وهو يعيب على جدّه إسماعيل إسرافه ، ويعيب على أبيه توفيق استسلامه ، وعلى رجال المعية ضعفهم ، وشباب الأمة يبلغه هذا الشعور فيجاوبه ، فيتوجه الخديو لصلاة الجمعة في المسجد الحسيني فيقابله الشعب في حماسة ، « ويتقدم الطلبة وغيرهم من المحتشدين بالسكة الجديدة — نحو العربية الخديوية ويُقصون جياها ويحرقونها بأنفسهم » ، ويغير الخديو رجال المعية بغيرهم ممن هم أقرب إلى نفسه ومبادئه

وفي ذلك الوقت كانت فرنسا تشعر بخطتها في سياستها الماضية التي آلت إلى ضعف نفوذها في مصر ، فأخذت تبحث عن طريقة لاسترداد بعض ما فقدت ، فرأت أن يكون من هذه السبل الالتفافُ حول « عباس » .

وتركيا كذلك تأسف هذا الأسف ، وتتجه هذا الاتجاه — وكل هؤلاء وهؤلاء يطالبون بالوفاء بوعده إنجلترا بالجللاء عند صلاح الأمور .

والحكومة الإنجليزية تلوح في البرلمان الإنجليزي من طرفٍ خفيٍّ بالنصح لعباس أن يتبع سياسة والده في مسألة الإنجليز والتحالف معهم .

وأخذ الخديو عباس يتصل بالشعب ويوسع نفوذه من طريق الرحلات في المديرية ، ومقابلة الأعيان والعلماء ، وزيارة المعاهد والمدارس ؛ كما أخذ يميل إلى مباشرة الأعمال بنفسه بالاتصال بالمديرين ، وتكليفه المختصين كتابة التقارير عن نظم التعليم والجيش ونحو ذلك ؛ فبدأ شيء من الجفاء بينه وبين اللورد كرومر ، وتسرب ذلك إلى الشعب .

عند ذلك بدأت تظهر في البلد تيارات مختلفة ، وبدأت توضع بذور الأحزاب المختلفة ، وبدأت تتجلى بوضوح اتجاهات الصحف المختلفة .

هذه تؤيد الحركة الوطنية وتناصر الميول الخديوية ، إما عن إخلاص ، وإما رغبة في الكسب ، وإما خدمة للسياسة الفرنسية ؛ وهذه تؤيد السياسة الإنجليزية ، إما رغبة في الاستفادة ، وإما عن عقيدة أيضاً .

وظهر أثر ذلك في الجدل في المجالس والمناظرة في الصحف .

في هذا الأفق المملوء بالسحب ، ظهر « عبد الله نديم » ثانية ، وقد سمح له الخديو عباس بدخول مصر ، فمكث قليلا يتعرف الأحوال ، ويدرس ما فاتته من شئون مصر مدة غيابه ، ثم صح عزمه على تحديد الغرض وإنشاء جريدة « الأستاذ » ، قال عنها : « إنها جريدة علمية تهذيبية فكاهية » ، تصدر يوم

الثلاثاء من كل أسبوع ، وظهر العدد الأول منها في أول صفر سنة ١٣١٠ هـ —
٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢ م ، يتولى هو تحريرها ، ويتولى أخوه إدارتها ؛ وقد
كُتِبَ في أول عدد منها أنها لا تتعرض للسياسة العملية الإدارية . أما السياسة
من حيث هي فنّ فإنها تدخل في موضوعها العلمى .

كانت أول أمرها تمدُّ امتداداً لجريدته « التبكيك والتبكيك » من حيث
موضوعها وأسلوبها ، فهى تُعنى أكثر ما تعنى بنقد العيوب الاجتماعية في المجتمع
المصرى ، وفيها مقال أو نحو ذلك في شئون الإصلاح السياسى من وجهة عامة ؛
ثم هى تُحرَّرُ باللغة العربية الفصحى في المقالات السياسية الإصلاحية ، وباللغة
العامية في الموضوعات الاجتماعية .

والمطلع على ما كتبه في هذا العهد يرى أنه بعد رجوعه من محبته قد فوجىء
بموجة من الانحلال الخلقى في البلاد : فإفراط لم يكن معهوداً من قبل في شرب
الخمر ، وعدم اكتراث الشاربين بنقد الناقدين ، وانتشار للخمّارات في المدن
والبلاد والقرى ، وابتزاز الأروام للأموال عن طريقها — وشعور النساء بالحرية ،
فهنّ يكثرن من الخروج في الشوارع متبرجات بزيتنهن ؛ ثم الحشيش والمعاجين
والإفراط فيها والاحتفاء بمجالسها ؛ ثم استعمال كلمة الحرية وسيلة للانهماك
في اللذات والشهوات ؛ وأعجب من ذلك السقوط في تقليد المصرى للأوربى تقليداً
أعمى في لى لسانه بالقول ، والتشدد باستخدامه كلمات أجنبية أثناء حديثه بالعربية ،
ولبّس الضيق المحبوك من الثياب الإفرنجية ؛ فنقد كل ذلك في أسلوب قوى
جرىء ، واتهم الأوربيين بتشجيعهم هذه الأمور حتى يسقط الشرق وتنحل
أخلاقه ؛ ونقد كذلك مناهج التعليم في البلاد ، وخلوها من بثّ الروح القومية
والعصبية المصرية ، وحثّ أبناء البلاد على إنشاء الجمعيات الخيرية التى تسدّ هذا
النقص ، ونحو ذلك .

وعجب مما رأى من أن كثيراً من أولى الرأى فى الأمة أصابتهم الدهشة والرعب من الاحتلال ، فانطوا على أنفسهم ، ولزموا دورهم ، فإن تكلموا فى الشؤون العامة فمن وراء حجاب ، وتركوا الناس مبلبله أفكارهم ، مضطربة نفوسهم ، لا يعرفون أين يتجهون ؛ فدعا إلى خروج ذوى الرأى من عزلتهم ، واختلاطهم بالرأى العام فى الجماع العامة ، يخطبون فيهم ، ويشرحون ما حدث وما يحدث ، حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم .

فى كل ذلك كتب « عبد الله نديم » فى الأعداد الأولى من « الأستاذ » - ووجد النفوس مستعدة لهذه الدعوات كأنها حائرة تنتظر الدليل ، ضالة تلتبس الهادى ، فانتشر « الأستاذ » انتشاراً فاق ما كان يتوقع ، فقد كان يطبع منه حول ثلاثة آلاف ، كأكبر جريدة يومية إذ ذاك ، وأعيد طبع الأعداد الأولى منه . وقد حاول مرة أن يحرر الجريدة كلها باللغة العربية الفصحى ، فأتته رسائل الاحتجاج الكثيرة تذكر له خطأه ، لأن المرأة تسمع مقالاته فى بيتها ، والعامية يسمعا وهو فى مصنعه ومتجره ، والفلاح فى حقله ، وكلهم يستفيد من نقده ، وكثير يتعظ بنصحه ؛ فنزل عند رأيهم ، وأعادها كما كانت عربية فصيحة فى بعضها ، عامية فى بعضها .

ثم نرى نعمته تلو شيئاً فشيئاً فى الميدان السياسى ، ومناصرة الحركة الوطنية ، ومؤازرة الخديو عباس ، ومناهضة الاحتلال ، حتى بدا ذلك واضحاً فى العدد الصادر فى ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ ، فيفتح العدد بمقال جرىء عنوانه : « لو كنتم مثلنا لفلتم فعلنا » ؛ وهى كلمة كانت تتردد على لسان بعض الأوربيين يخاطبون بها الشرقيين ؛ ويقع المقال فى ست وعشرين صفحة من أقوى ما يكتب ، يصف فيها حالة الغرب وحالة الشرق ووسائل الاستعمار ، وما إلى ذلك ، ويندد بالغربيين فى أساليبهم ، وبالشرقيين فى غفلتهم ، ويشرح ما تفعله الحكومات الغربية

لترقية شعوبها ، وما تنشره في أمم الشرق لانحلالها ، وما يفعله المصريون في تحاذلهم وتواكلهم^(١) ، ويدعو إلى الالتفاف حول الخديو ومطالبته بالمحافظة على حقوقه الشرعية ؛ ويختم المقال بقوله : « وبالجملة فقد بلغ السيلُ الزُبى^(٢) — فإن رَفَوْنَا هذا الخرق ، وشددنا أزرَ بعضنا ، وجمعنا الكلمة الشرقية ، مصرية وشامية وعربية وتركية ، أمكننا أن نقول لأوربا : نحن نحن ، وأتم أنتم ؛ وإن بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ^(٣) بالأجنبي فريقاً بعد فريق ، حَقَّ لأوربا أن تطردنا من بلادنا ، وتصدق في قولها : « لو كنتم مثلنا لفلتم فعلنا » .

واستمر على هذه النعمة كذلك في الأعداد التالية . والمطلع على الحوادث التي كانت تجري في تلك الأيام يرى أن علو هذه النعمة كان صدَى لما يحدث من أزمات . ففي هذه الأيام بعينها اشتد الجفاء بين الخديو عباس واللورد كرومر ، ففي ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ أقال الخديو مصطفى باشا فهمى منتهزاً فرصة مرضه ، وعهد إلى حسين فخري باشا في تشكيل الوزارة ، فعارض اللورد كرومر في أن تعين الوزارة من غير أخذ رأيه ؛ واشتد الأخذ والرد ، وأنذرت إنجلترا الخديو إنذاراً شديداً ، وانتهت المسألة باستقالة حسين فخري وتعيين رياض باشا حسبما أشار اللورد كرومر . وانتشر الخبر في الشعب ، فأقبلت الوفود على الخديو في ١٨ يناير تلتقى الخطب في تأييده في موقفه ، وظهر أثر ذلك واضحاً في الجرائد التي تناصر الحركة الوطنية ؛ فكان هذا هو السبب فيما نرى من حرارة مقالات النديم في تلك الأيام وما بعدها ، ومناصرته للخديو ، ومنازلته للجرائد المخالفة في قوة ووضوح .

(١) تواكلهم : انكال بعضهم على بعض .

(٢) الزبى : جمع زبية ، وهي المكان المرتفع من الأرض لا يملوه ماء .

(٣) اللياذ : الالتجاء .

وهو — مع هذا — يتوسع في اقتراحات الإصلاحات الاجتماعية : فينقد علماء الأزهر في انزوائهم وعدم معرفتهم بالدنيا وما يجري فيها ، ويضع برّناجماً واسعاً لإصلاح الأزهر ، كما ينقد الزراعة في مصر وتأخرها ، ووجوب إصلاحها على أساس علمي صحيح ، وفوضى اللغة العربية ، ووجوب إنشاء مجمع يحفظ كيانها ويكمل نقصها ، والخرافات والأوهام ، والطرق الصوفية وما يجري فيها من مخازر وعيوب . . . الخ .

ثم علت نغمته طبقة أخرى ، فأخذ ينقد الإنجليز صراحة في سياستهم في الهند ومصر ، ويسب من يلوذ بهم ، ويهيج الناس على المبشرين وطرق التبشير ، ويقول : إن السياسة تؤيدهم وتلعب ألعبيها من ورائهم ، فتألبت عليه الجرائد المخالفة له في مذهبه من إنجليزية وعربية وحدثت منه ، وقالت إنه يعدّ البلاد ثقتة بين المسلمين وغيرهم ، وبين المصريين بعضهم وبعض ، ويحرك الضغائن بين المصريين والأجانب ، ويهيج لثورة كالثورة العراقية ، ونصحت لأولى الأمر من الإنجليز أن يأخذوا حذرهم منه ، وإلا ساءت العاقبة . وشهرت به بعض الجرائد الإنجليزية كالتميس ، والديلي نيوز ، وقالت إنه متعصب للدين ، متبجح لجميع أعمال الأوربيين ، وإنه ثوري مهيج ، وأيدتها المقطم ، ودافع عنه المؤيد والأهرام والوطن ، وبعض الجرائد الفرنسية ؛ ولم يأل هو جهداً في منازلة خصومه والتشهير بهم ، وإعلان عدم المبالاة بما يجري له ، فقد لاقى المذاب أواناً في أيام استخفائه ، فكل ما سيناله هين بالقياس إلى ما لقي ، وأعاد نشر قصيدة له في ذلك كان قد أنشأها في مخبئه ، منها :

إذا ما الدهر صافانا مرضنا	فإن عدنا إلى خطب شفيينا
لنا جلد على جلد يقينا	فإن زاد البلا زدنا يقينا
إذا ما المجد نادانا أجبنا	فيظهر حين ينظرنا حيننا

يغنيننا فيلهينا التغنى
عن الباكي وينسينا الحزينا

واسنا الساخطين إذا رزنا
نعم يلقي القضا قلباً رزينا
إذا طاش الزمان بنا حلمنا
ولسكنا نهينا أن نهينا

وأخيراً طلب اللورد كرومر من الخديو عباس نفيه فأطاع، ولم يستطع أن يحمي من كان يحميه، وودع « الأستاذ » قراه في آخر عدد منه صدر في ١٣ يونية سنة ١٨٩٣. فكان عمره أقل من عام، ولم يذكر في وداعه السبب الحقيقي الذي من أجله أغلق « الأستاذ » ونفى صاحبه، بل قال إن سبب ذلك المرض وحاجته إلى الاستشفاء، وقال في آخر وداعه: وما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال، والعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظم والجلال، وعلى هذا فإني أودع إخواني قائلاً:

أودعكم والله يعلم أنني
أحب لقاءكم والخلود إليكم
وما عن قلبي كان الرحيل وإنما
دواع تعدت فالسلام عليكم

وكان ينشر ملحقاً « للأستاذ » هو صفحات من كتاب ألفه وهو في الحبأ اسمه « كان ويكون » جمع فيما بعد، ولم يتم نشره؛ كان يريد من تدوينه عرض خلاصة أفكاره الدينية واللغوية والسياسية والأدبية والتاريخية والإنسانية، ملتزماً فيه حرية الفكر، وعدم التعصب لدين أو جنس، ذا كراً فيه ما شاهده في مصر من أحداث، مبيناً ما وراءها من علل.

ووضعه على نمط قصصي، إذ كان له صديق فرنسي أتى من باريس قبل الثورة العراقية، وتعلم العربية والتركية، وأقام في مصر متنبهاً حوادثها، وعرف عبدالله نديم في الإسكندرية سنة ١٢٩٢ هجرية، وتوثقت بينهما الصلة، وكانت له ضيعة قريبة من البلدة التي اختبأ فيها « النديم » فاتصل به في مخبئه، وكان الفرنسي يزوره ويخدمه في قضاء أغراضه، وكثيراً ما يدور الحديث بينهما في الدين والسياسة

فبنى كتابه « كان ويكون » على هذا ، ودون فيه ما كان يدور بينهما من حديث وجدل ؛ وأكثر ما نشر كان في أصول الأديان ، وتاريخ اليهودية والمسيحية والإسلام ، يتخلل ذلك بعض أخبار عن أحواله في محبته ، وبعض نظرات سياسية .
ومما يؤسف له أن إقبال جريدة « الأستاذ » حال بينه وبين نشر القسم السياسي والتاريخ المصري من الكتاب ، وما نشر منه يدل على نظر عميق واطلاع واسع وسماحة دينية لطيفة ، وعاطفة جياشة بحب الخير لمصر والشرقيين .

— ٦ —

خرج « النديم » إلى يافا ، حيث كان قبل العفو عنه ، ورتبت له الحكومة المصرية خمسة وعشرين جنياً شهرياً يعيش بها ، على شرط ألا يكتب شيئاً في الجرائد يتصل بسياسة مصر .

وما لبث أربعة أشهر في يافا حتى وشى به الوشاة بأنه يطعن في سياسة الدولة العلية ، ويلمّز السلطان ؛ فصدر الأمر بإبعاده أيضاً .

فأخذ يذرع الأرض لا يعرف أين يستقر ، فلامصر تقبله ، ولا أى أرض من أراضي الدولة العثمانية تُحمله ؛ ونزل الإسكندرية أياما حتى تُحل مشكلته .

وقد كان كثير من أحرار العثمانيين إذ ذاك قد سافروا إلى أوروبا ومصر ، وأنشأوا الجرائد يطالبون بالدستور وإصلاح الدولة ، وينقدون السلطان نقداً مراراً . فكان من سياسة عبد الحميد في بعض الأوقات أن يسترضى هؤلاء الناقين ، ويحبب إليهم الإقامة في الآستانة تحت سمعه وبصره ، ويُجرى عليهم الرزق الواسع ، ويُسند إليهم بعض المناصب ، فيتقوا أذاهم ، ويستجلب رضاهم . فاحتشد في الآستانة من أرباب القلم واللسان عدد كبير ، منهم السيد جمال الدين الأفغانى وغيره من أدباء الترك وشعرائهم وساستهم ؛ فكان أن الغازى مختار باشا أشار على الدولة العلية أن تعامل عبد الله نديم هذه المعاملة فقبلت . وسافر إلى الآستانة ، وصدرت
زمعاه الإصلاح — م ١٦

الإرادة السلطانية بتعيينه مفتشاً للمطبوعات بالباب العالى بمرتب ٤٥ جنياً مجيداً ، مضافة إلى الخمسة والعشرين التى يتقاضاها من مصر — ينفق كل ذلك على نفسه وإخوانه ، ومن يَبْرَهُ من أهله وأقاربه ؛ ومن أيام المنصورة عُرِفَ بأنه صنّاع القلم واللسان ، أَخْرَقُ اليَدُ^(١) .

دخل الآستانة ، فدخل القفص الذى دخل فى مثله جمال الدين الأفغانى ، وغاية الأمر أن قفص جمال الدين ضَيِّق من ذهب ، وقفص النديم واسع من حديد ، يختلفان بمقدار الخطر من كل منهما ومكانته وحسبه ونسبه ؛ فالسيد جمال الدين يخصّص له بيت فخم ، ويجعل تحت أمره عربة وخدم وحشم ، ويجزى عليه ٧٥ ليرة فى الشهر ، وتعرض عليه مشيخة الإسلام فى أبى ؛ وعبد الله نديم يعين مفتشاً للمطبوعات بخمسة وأربعين ليرة ، ولا بيت ولا خدم — ولا غروفالسيد جمال الدين سيّد فى طبعه وحسبه ونسبه ، كان يَمُدُّ نفسه قريناً للشاه والسلطان ، لا يقلّ عنهما إلا بما شاء القدر من تحليتهما بالملك وعطّله منه ؛ وعبد الله نديم يرى أنه من الشعب وابن الشعب وخدامه ، لا يمتاز إلا بما منحه الله من ذكاء ولسن . إذا دعا السيد جمال الدين إلى الإصلاح شعر بأنه يخطب الناس من أعلى مكان يشرف عليهم ، وهو غَضُوبٌ وَقُورٌ ؛ وإذا دعا « النديم » شعر بأنه واقف فى وسطهم يضحك لهم ويضحك منهم ويصلحهم . ولهذا كان جمال الدين جليلاً يُسْمَعُ لقوله فى رهبة وخشية ، وينصح الناس وكأنه يضربهم بالسياط ؛ وكان النديم محبوباً يقابل بالابتسام ، ويُقْبَلُ قوله فى فرح ومرح ؛ ولذلك كان أسف الناس فى مصر على فراق النديم أكثر من أسفهم على فراق جمال الدين ، لأنَّ سُودِدَ^(٢) جمال الدين فى الخاصة وسُودِدَ النديم فى العامة .

(١) أخرق : أحمق ، لا يحسن التصرف ؛ وأخرق اليد كناية عن الإسراف .

(٢) السؤدد : السيادة وعلو المقام .

وعجيب أن يقبل « النديم » (وظيفة) مفتش للطبوعات ، وهو الذى كان ينال الأذى دائماً من إدارة الطبوعات ؛ وأن يرضى أن يتحكم فى الصحف ، وهو الذى كان يابى أن يتحكم فيه أحد ؛ وأن يكون أداة لتقييد الحرية ، بعد أن كان داعيةً لتأييد الحرية !! ولكن يخفف من هذا أن « الوظيفة » كانت صورية محضة ، وكان الغرض منها أن يُمنح المكافأة فى مظهر غيرٍ وضع .

ها هو ذا فى الأستانة قد عطلت كل مواهبه ، فلا خطابة ولا كتابة ، ولا تهيبج ولا تحميس ، وهو فى وسط يكاد يخنق منه ، لا يفرج عنه إلا مجلس السيد جمال الدين ، يحدّثه ويسامره ، وكلُّ يشكو إلى صاحبه قصه .
ولكن أنى لصاحب هذا اللسان أن يهدأ ؟

لقد وقع فى الخصومة مع أنى الهدى الصيادى ، كما وقع فيها معه السيد جمال الدين ؛ ولكن السيد عفّ اللسان فى الخصومة الشخصية ، أما « النديم » فويل لمن عاداه .

كان أبو الهدى محبباً من العجب ، إذا أرخت الدولة العثمانية فى عهد عبد الحميد احتل كثيراً من صفحات تاريخها ، وكان مستتراً وراء الصفحات الباقية ، يرثى اسمه فى كل أنحاء المملكة من مصر وسورية والعراق وتونس والجزائر ، ويتقرب إليه الولاة فى حلّ كل عزيمة — أثبت به القدر أنه على كل شىء قدير .

سورى من حلب ، فقير المال والحسب ، دفنته المقادير إلى الأستانة ، وكان ماهراً ذكياً وسيم الحجة ، ماضى العزيمة ، قادراً على معرفة نفوس الناس ومن أين تُؤتى ، فتغلب على عقل السلطان عبد الحميد بأحلامه وتفسيراته ، والطرق ومشيختها ، فربط نسبه بأعلى نسب ، فهو قرشى هاشمى علوى ، وهو فى الطريقة رفاعى له الأتباع الكثيرون ؛ لا يعبأ بالمال يأتيه على كثرته فينفقه ويستدين ، لأن عزّ الجاه والسلطة عنده أقوى من عزّ المال .

له أعين تأتي له بكل الأخبار ، فيستغلها أمر استغلال . لم يقف عند الدين والولاية والصوفية ، بل مد نفوذه إلى الشؤون السياسية والإدارية والعسكرية . يحلم فلاحاً حد الحلمه ، ويبطش فلاحاً لبطشه . سُمِّيَ « مستشار الملك » و « حامي العثمانيين » و « سيد العرب » . استمال كثيراً من الأمراء والوجهاء والأعيان والعلماء والأدباء ، فكانوا عوناً له على كل ما أراد . يبطش بهم حين يريد البطش ، ويؤلف بهم الكتب حين يريد شهرة العلم ، وينظم بهم القصائد حين يريد الأدب والشعر ؛ إلى كرم وسماحة وحسن حديث .

الدنيا كلها يجب أن تسخر لشخصه ، وأن تخضع لأمره ، والحق ما أتى من طريقه ، والباطل ما أتى من طريق غيره — عدو كل إصلاح ، وخصم كل حُرٍّ . كم له من ضحايا في السجون ، وفي أعماق البحار ، وفي ذل الفقر ، وفي بؤس المنفى . تملقه الأمراء ، وتهابه المظالم .

وكم أنفذ أمره وأبطل أمر السلطان ، وكم تدل على عبد الحميد فاسترضاه ، وبالغ في الطلب فأوفاه^(١) ! !

هذا أبو الهدى الصيادي الذي لم يتحرر عبد الله نديم أن يخاصمه وينازله ، ويطلق فيه لسانه ؛ ووضع فيه كتاباً سماه « المسامير » ، لم يُنشر في حياته ، وهو كتاب لا يشرف الصيادي ولا عبد الله نديم ، لأنه استعمل فيه أسلوباً وضيعاً وهجاءً فيه هجاء مُقذعاً .

وبلغ أبو الهدى أمر هذا الكتاب المخطوط ، فأبلغ السلطان عبد الحميد أن فيه أيضاً هجاءً له . فبحث عنه طويلاً من غير جدوى ، واستطاع « جورج كرتشي » الذي كان متصلاً بالسيد جمال الدين و « النديم » أن يحتفظ به ويخفيه وينزله إلى مصر ، ثم يطبعه .

(١) أوفاه : سمح له به كاملاً .

لم تطل حياة « النديم » في الأستانة طويلا ، فقد أصيب بالسُّلِّ ، واشتدت عليه العلة ، فمات في العاشر من أكتوبر سنة ١٨٩٦ ؛ واحتفل بجزائه احتفالا كبيرا مشى فيه السيد جمال الدين — الذي لحقه إلى ربه بعد أشهر — ودفن في مدفن يحيى أفندي في « باشكطاش » .

وكانت أمه وأخوه قد علما بشدة مرضه ، فسافرا إليه ، ولكن لم يدركاه إلا ميتا ، ووجدوا متاعه وأثاثه وكل شيء له قد نهب ؛ فمصادا وليس في يدهما إلا الحزن والأسى .

مات في نحو الرابعة والخمسين من عمره ، فلم يكن بالعمر الطويل ، ولكنه عمر عريض ، فظلما غذى الناس بقله ، وهيجهم بأفكاره ، وأضحكهم وأبكامهم ، وحيّر رجال الشرطة ، وأقلق بال رجال السياسة ، ونازل خصومه من رجال الصحافة ، فنال منهم أكثر مما نالوا منه ، ولم يهدأ له لسان ولا قلم حيث حلّ ، ولا على أى حال كان ؛ حتى هدأه الموت الذى يهدىء كل ناثرو .
مهما أخذ عليه فقد كان عظيما !

فتح للناس في جريدتيه « التبكييت والتنكييت » و « الأستاذ » أبوابا من الإصلاح الاجتماعى كانت مغلقة ، فى التعليم والزراعة ، واللغة والصناعة ، والأخلاق وما إلى ذلك ؛ فسار المصلحون على أثره .

وكانت الجرائد المشهورة فى عهده « المقطم » و « الأهرام » و « المؤيد » و « النيل » ؛ وكان لها ثلاثة اتجاهات : منها ما يسالم الاحتلال ويؤيده ، ومنها ما يؤيد الحركة الوطنية ويؤيد من ورأها السياسة الفرنسية ؛ ومنها ما يؤيد الحركة الوطنية والنزعة الإسلامية والارتباط بالدولة العثمانية ؛ وكل منها يعرض وجهة نظره فى شيء من الهدوء والرزانة والوقار . فلما طلع « الأستاذ » دعا إلى أن مصر للمصريين ، لا لتركيا ولا للأوربيين ، وناصر الحركة الوطنية

والالتفاف حول الخديو أمير البلاد ؛ ودعا الذين غلبهم الخوف بعد الاحتلال أن يبرزوا من مكانهم ، ويمسحوا الخوف عنهم ، ويتصلوا بالجمهور ليقظوه ؛ ودعا إلى تأليف الأحزاب حتى يكون لكل جريدة حزبها ، ولكل حزب برنامج . ولم يسلك سبيل الهدوء كما سلكه معاصروه ، بل كان حاداً عنيفاً ، والحدة منه استتبعته الحدة من الجرائد الأخرى ، والغضب يبعث الغضب ، والصوت العالي يبعث في الرد عليه الصوت العالي ؛ فتميزت الجرائد بعضها عن بعض في وضوح وجلاء .

وكانت هذه الحدة وهذا الجدل المتتابع في المسائل العامة أكبر موقظ للرأي العام النائم ، يفهمه موقفه وما يضره وما ينفعه ، وأي غاية يريد منه هؤلاء وهؤلاء ، ومواطن ضعفه ، وكيف السبيل إلى قوته ؛ وللنديم الفضل الكبير في ذلك .

وكانت جريدة «الأستاذ» هي الأستاذ لمصطفى كامل ، تعلم منها الاتجاه والنعمة ، وإن اختلفا من حيث الثقافة والأسلوب بحكم الزمن والأحداث والظروف .

نم كان في «النديم» شيء من التهريج كالذي رأينا قبل . وكان من تهريجه أنه كان في أول أمره يرتدى الثياب الإفريقية ، فلما ظهر بعد الاستخفاء لبس الجبة والقفطان ، واعتم بهامة خضراء ، وادّعى أنه شريف إدريسي ينتسب إلى الحسن بن علي ؛ وكثير من الواقفين على الحقيقة ينكر ذلك ؛ وربما دعاه إلى هذا شعوره بمركب النقص ، من حيث نشأته الفقيرة المتواضعة ، وما مرّن عليه من التصنع أيام الاستخفاء ، وحالة الوسط الذي عاش فيه من أنه لا يمجّد إلا إذا الثراء أو ذا الحسب — ومع هذا فالعظيم يقدر بكله لا ببعضه .

كانت عظمته في ذكائه وقوة لسنه . قال فيه المرحوم أحمد باشا تيمور :
« كان شهي الحديث ، حلوا الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز .
لقيته مرة في آخر إقاماته بمصر فرأيت رجلا في ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ،

وقبح الجاحظ . أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا .

كان السيد جمال الدين يُعجَب بقوة حجة النديم في المناظرة والجدل ، وسرعة بديهته ، وشدة عارضته ^(١) ، ووضوح دليله ، ووضعه الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها إن خطب أو كتب .

ثم هو شجاع لا يخاف ؛ يَلدُّه مواجهة العظماء ومنازلة الكبراء في غير خوف ولا وَجَل ، إلى تواضع مع العامة ومضاحكتهم ومؤانستهم وملاطفتهم ، لا يعبأ بالقوة ولا يخاف البطش ، فإذا نازل أحداً وسلط عليه لسانه كانت الكارثة ؛ نازل الخديو توفيق والاحتلال ، وأبا الهدى الصيادى ، ولكلِّ جاهه وسلطانه الذى أذل أعناق الكثيرين ؛ كل ذلك وهو فقير يعيش من يده إلى فمه ، ما أتاه أتلفه ، وما وصل إلى يده بدَّه ، معتمداً على ربه الذى يرزقه كما يرزق الطير تغدو رخاصاً وتروحُ بطاناً ^(٢) .

ضعيف الجسم ، كثير العلل ، وربما كان ذلك هو السبب فى موت أولاده جميعاً فى طفولتهم ، فقد رُزق قبل الاستخفاء بمحمد ، وعثمان ، وإلياس ، وفاطمة ، وعائشة ، وسُكينة ، وخديجة . كما رُزق أيام الاستخفاء بحفصة ، وريتا . وكلهم لم يعيش طويلاً . ومع هذا فهو — على مرضه — دائب العمل دائم الحركة ، لا يعتريه كَلل ولا ملل . يودُّ أن يخلد اسمه بالعمل ، بعد أن حُرِمَ تخليد اسمه بالولد .

أعدَّ نفسه إعداداً عظيماً بكثرة الخبرة وسعة التجربة . فكان كما حدث عن نفسه : « أخذت عن العلماء ، وجالست الأديباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهين

(١) شدة العارضة : قوة البيان وسرعة البديهة .

(٢) رخاص : ضامرة البطون لخلوها من الطعام . بطان : عظيمة البطون لامتلائها بالطعام .

الصغيرة . وأدركت ما هم فيه من جهالة ، وم يتألمون ، وماذا يرزجون ، وخالطت كثيراً من متفرنجة الشرقيين ، وألمت بما انطبع في صدورهم من أشعة الغربيين . وصاحبت جمّاً من أفاضل الشرقيين المتعلمين في الغرب ، وعرفت كثيراً من الغربيين ، ورأيت أفكارهم — عالية أو سافلة — فيما يختص بالشرقيين ، والغاية المقصودة لهم ؛ واختلطت بأكابر التجار ، وسهّرت ما هم عليه من السير في المعاملة أو السياسة . وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً ؛ واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتاريخ والأدب ، وتعلّقت بمطالعة الجرائد مدةً ، واستخدمت في الحكومة المصرية زمناً ، واتجرت برهة ، وفلّخت^(١) حيناً ، وخدمت الأفكار بالتدريس وقتاً ، وبالخطابة والجرائد آونةً — واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذي وصلت إليه بعناء كسائي نُحولَ الشيخوخة في زمن بَصَاضة الصِّبا ، وتوجّني بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء . فصورتي تريك هيئة أبناء السبعين ، وحققتي لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين .

وربما كان أعظم شيء فيه ثباته على مبدئه . باع نفسه لأمته حسبما يمتقد الخير لها ، ولم يتحوّل عن ذلك على كثرة من تحوّل في مثل مواقفه . هؤلاء زعماء الثورة العرابية حاولوا أول أمرهم أن يُنكروا ما فعلوا ، فلما لم ينفعهم إنكارهم وعوقبوا عادوا وخضعوا ، وعاشوا في مسالمة ومهاودة . أما هو فلم ينكر ما قال . ولقى في مخبئه الأهوال . وكان جديراً بمن لقي ذلك كله أن يهدأ ، وإذا هدأ فلا لومَ عليه . ولكنه ظل يجاهد ، ويُنفى فيجاهد ، ويُعفى عنه فيجاهد ، ويحذر فلا يحذر ؛ ويطمّع فلا يطمّع ، حتى لقي مولاه .
رحمه الله .

(١) فلح الأرض : شقها ، يعني أنه اشتغل بالفلاحة .